رواية

العـــارف

رأس الإمام

محمد سامي البوهي

الكتـــــــاب: العارف - رأس الإمام
المــؤلـــــف: محمد سامي البوهي
تصميم الغـــلاف: مروة فتحي
المراجعة اللغـوية: مؤسسة إبداع
رقـــم الإيـــداع: 2017 / 00000
الترقيـم الدولـي: 0 - 183 - 779 - 977 - 978
الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 10 ش هدى شعـــــراوي، وســـط البـــــلد، القاهـــــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

رواية

العـــارف

رأس الإمام

محمد سامي البوهي

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

أنا اللاشيء ولا شيء يشاء إلا بما شاء، وما شاء، شاء، فكان اللاشيء شيئًا بمشيئته.

الكاتب،،،

إهداء

إلى.. أمي

التي ظلت ترفع يدها اليمنى إلى السماء

حتى فُتح لها..

الرقص على أبواب قرطبة

استيقظ "العارف" من رؤاه التي اعتادها على همسات من الرياح الأندلسية التي دفعها البحر برفق، فتسللت إلى نوافذه المطلة على قصر "الزهراء" في أعلى الجبل حيث يجلس الفتى اليافع "محمد بن منصور بن بني عامر" أمام بابه الثامن يفترش الأرض، يسطر بهمة الشباب مظالم الرعية، والعباد، بخطه الكوفي الساحر، الذي يُخبىء خلفه لسانًا فصيحًا، لرجل يحمل بين جوانجه أمنية عظيمة.

لكنه حتمًا ما زال يبحث عن الباب الذي سيُفتح له، لتعبر أمنيته تلك الجدران الرخامية، وأسوار الجند، التي تحجبه عن الجناح "المؤنس" حيث يستقر مقام الخلافة بين اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر لطيور وحيوانات تقذف الماء من أفواهها إلى الحوض الذي جلبه الوزير "أحمد بن حزم" من الشام، ليُناطح بروعته وجماله حوض قيصر القسطنطينية المُواجه، والذي كان قد أهداه

إلى الخليفة الناصر، ليمد به ودًّا مقطوعًا ووصلاً ممنوعًا.

طوح "العارف" تنورته الخضراء بجسده في الهواء، واستهل رقصته مع شروق الشمس المفعم بالرائحة التي عشقها المجاهدون منذ أن رست سفنهم على الشاطئ، فكانت الأمواج من خلفهم سدًّا، وكانت الأحلام من أمامهم متسعًا، رفع "العارف" يديه لأعلى ليستمد القوة من السماء؛ أسدل كفيه على قلبه ليُطَهِّره من ضغائن الأرض، ثم زاد من الدَّوران، تفتحت تنّورته تمْزج النور بالنور، وتقاوم الظلام، تقاوم السقوط، تقاوم الذنوب، تقاوم الآلام .. تقاوم.. تقاوم ..قاوم.. قاوم..

اصعد..

لا تخشَ الإرتفاع، بنظرك لمن فارقتهم، فهم راحلون مثلك، كلٌّ إلى حال مصيره المنتظر، وإياك من التعلق بنظرة تُثقلك، فقط هي رُوحك التي تجذبك نحو المنتهى، فاصعد.. اصعد ..واسعد بمن يتلقفك في الجنة.

اصعد..

ففي الصعود سمو، وسموك قد سبقك إلى هناك قبل أن تُولد أنت، فرُوحك كُتب لها النجاة قبل أن تخطو بعملك، فاقترف ذنبك

المستقيل، ولا تحزن لفراق الخير، فعثراتٌ تُقويك إن أدركت الطريق، وطريقٌ يأخذك من طريق إلى طريق، حتى تتقاطع كل الطرق، وتبقى رُوحك تطوف سبعًا حول نقطة التلاقي، فإلى ربك المساق، وعند ربك أنت تُرحم.

اصعد..

اصعد.. ولا تبتئس، ففي صعودك حياةٌ لم تعشْها بعد، أما دُنُوك فيحمل حياة عشتها قطعًا، وانتهت، تتركها شئت أم أبيت، فلا مُخلَّد في حياة زائلة، ولا زوال إلا بعد أمـر، ولا أمـر إلا وتبعته طاعة، ولا طاعة إلا بقناعة، ولا قناعة إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بمشيئة، ولا مشيئة إلا بما شاء، فاصعد.. اصعد ولا تبتئس ففي صعودك حياة لا تنتهي..

اصعد ..

اصعد..

لملم "المنصور بن أبي عامر "مدواته، وأوراقه، وأحباره بعد أن أعلن حراس القاضي "محمد بن إسحاق بن السليم" عن انتهاء العمل في ديوان المظالم، ثم أمعن في النظر لوجوه الجالسين أمامه من العامة ممن أجهز الوقت عليهم فمنعهم من رفع شكواهم، وصاح فيهم مواسيًا؛

ليخفف عنهم همًّا سكن قلوبهم، ولم يجدوا له ملجأ في صحائفه التي يخطها بيديه ويرفعها إلى القاضي:

-لقد غلَّقوا الأبواب لكن باب الله لا ينغلق ..انصرفوا إليه ولن يردكم أبدًا.

انصرف الناس فُرادى، واحدًا تلو الآخر، مُنكسي الرأس يجرون الحسرة في أذيال أثوابهم، أما الأحراس فكانوا يتهافتون على أسوار القصر جماعات؛ لإحكام الحراسة خلال ساعات الليل الذي أوشك أن يُلقي سهامه في قلب الشمس لتسقط هناك عند أدبار البحر، فتركلها الأمواج نحو الجانب الآخر من هذا العالم.

امتطى "المنصور" ركوبته واتخذ طريقه صوب منزله، وتذكر أصحابه الذي طلب منهم أن يتمنوا عليه، حينما كان يستلقي بجسده تحت ظل شجرة في الجزيرة الخضراء، يقبض على أشعة الشمس، ويعقد في أطرافها حلمه العظيم، بأن يكون سيد تلك الأرض كلها، فتمنى عليه صاحبه الأول أن يكون وزيرًا يُحمل على الأعناق ولا تطأ قدمه التراب، ويأخذ منه الناس الرد والجواب، وتمنى عليه الثاني أن يكون له من المال الكثير ليصبح تاجرًا تحمل بضائعه ألف ألف من البعير، أما

الثالث فقد استنكر عليه ما يتمنى، فكيف لرجلٍ مثله يعمل حمَّارًا ينقل للناس أحمال القش، وحِزَم الحطب، وقواطع الخشب، وجرَّات العسل، وأدلاء الـرَّوَث، أن يكون خليفة للمسلمين، ويستبدل حمحمة الخيل المطهمة، بنهيق حمارٍ يشبع يومًا ويجوع عشرًا؟

فألحَّ عليه "المنصور" أن يُلقي بأمنيته ويكون ما يكون، فتمنى عليه ساخرًا أن يركبه حمارًا ويكون وجهه لذيله وظهره لقفاه، ويطوف به المُدُن والأمصار، يزفه الأطفال ويلقونه بما بُلي من المراكيب، وبما فسد من الخُضَار.

وهنا ابتسم "العارف" الذي لم ينتهِ من رقصته بعد، ثم رفع رأسه إلى السماء، وتنفس المطر الذي سقط ليطفىء نار الغُلة، ويملأ وجهه بغلالة البِشر، فالمطر رزقٌ يملأ الأرض والقلب، يُحيي به الله ما مات بعد أن كان حيًّا، فيحيا حياة الموتى، ثم يُبعثُ حيًّا.

-إن المطرَ كالألم نحتاج فيه إلى عناق كبير.

قالها "العارف" ثم بسط يده اليمنى إلى السماء ليستمدّ منها الخير، ثم خفض يده اليسرى إلى الأرض ينثر عليها نور العشق، ليكون هُدًى للآملين الحالمين، فالأحلام حتمًا كالطيور على الأفنان لا يمتلكها أحد،

وجنَّة الله التي نَرنُو إليها، ونجاهد من أجلها أنفسنا، هي عالمٌ خالدٌ من ذكريات جميلة مضت، ولم تأتِ بعد، وأمنيات اكتملت وانقطعت، وأحلام تحققت ولم نحصل عليها، وخيالٌ فاق طاقةَ الخيال، وألوان مبهجة رأيناها ولم نرها من قبل، ومذاقاتٌ تلذَّذنا بها وافتقدناها، وروائح استنشقناها لا تُمل، وحفنات ماءٍ إذا تجرعناها لا نظمأ بعدها قطّ، فالجنة ليست أشجارًا، وأنهارًا، ولبنًا، وعسلاً كما نظن، بل هي رغبات تحقَّقت قبل اشتهائها، فهي فوق.. فوق كل سماء، سقفها عرشٌ لا بداية له، ولا نهاية له، ولا طول ولاعرض، فلا يحدّه حدٌّ يحدُّ ما يُحَدّ...

فأطلق العنان ولن تُرد،

فليس فيها لأمانيك مُنتهى....

فتمنى..

وتمنى..

فلك ما طلبت من قبل قبل... ومن بعد بعد

فنعْم الطالب أنت ..فلك فيها ما لك.. وما لك فيها لك

بعد أن تحررت من ثقلك الكبير..

وعاد إليك ما كان عليك..

وما كان للّه هو دوام، وما كان لك هو زوال..

في "قرطبة" كل شيء يتحقق.

"العارف" لا ينطق كذبًا أو هراءً، ولكنه يرانا بقلبه، كما ترانا الموتى والملائكة، لذلك لم يكن أمام "المنصور العامري" إلا أن يسير خلف الصوت الذي يناديه، من حين لآخر، وهو يظن خيلاءً أن ما يقوده هو حدسه الأكبر الذي يسكن رأس شخص لم تنجب أُمٌّ عربيةٌ مثله بعد، لكن "العارف" لا يترك الأمنيات تذهب سُدى، لذلك هو يرقص دائمًا مع الآملين على وقع موسيقى قلوبهم الحالمة، فتدور تنورته في ساحات القصور، وفوق تيجان الزهور، والأعمدة، والملوك، يطوحها فيملأ بها الفراغات، والشقوق، لتصبح كل جسور الوصل مُمهدة للعبور، فتشق الرتق الذي يفصلنا عن العالم الآخر.

خرجت "صبح البشكنجية" من قصرها تبحث عن صاحب الرسائل الساحرة، التي لا يُرد لصاحبها عند الخليفة مطلب، أو مأرب، أو مظلمة، فأشار لها الحراس على مقعده من بعيد، فأطالت النظر إليه ثم انصرفت وهي تكنّ في نفسها شيئًا لا يعلمه إلا اللّه، لكن الفتى لم

يعبأ بما صبّه الواشي في أذنيه عن نظرة عابرة لحليلة الخليفة ربما قصدت منها هامة دانية، أو نائية، فمن يسلم نفسه لوشاة قرطبة لا يعيش طويلاً، ومن لم يمت بسيف الخليفة مات بالوهم، فردَّه "المنصور" ردَّ الآسفين، ولم يسمعه ما يسلم به رأسه لحاصدها، لكنه شعر ـــــعلي أي حالـــــ بأن دقته الأولى على باب القصر قد أحدثت وقعًا، وأمرًا، وأن هناك ما سيأتي حتمًا لغرس بِذار الحلم الأول ليدق له جذورًا كالوتد، ينبثق منه جذع، وسيقان، تتفرع عنها أفنان متشعبة ومتشابكة، فتدفع بثمار تلفُّها أوراقٌ خضراء حانية، وقطرة ندى رقراقة يرقص "العارف" داخلها دون أن يشعر به إلا من أراد أن يعبأ بمثل تلك القطرات المهملة، التي تأبى السقوط، فتتعلق برحمة الله، حتى يأذن لها أن تهوى ثم ترتفع.

-لا تلتفت خلفك دائمًا فربما الصوت يأتيك من السماء.

قلبّ "المنصور" بصره في السماء يبحث عن مُحدِّثه، لكن الفتى مازال يرى بعينيه ما يرى، فلم يرَ إلا سحبًا بيضاء، وطيورًا تهاجر إلى حيث الله شاء، فقبض بقلبه على ما تمناه، وراح يخط ما أتاه من شكاوى العباد، فمن جاء يشتكي ضيق الحال وضياع المال ويطلب مددًا وعطية، ومن جاء يبعث شكرًا وثناءً على السعة والوفرة، لكنه أراد أن

يكمل غناه بالولاية والجاه، وهناك من أتت تشتكي زوجها من ضربٍ مُبرح أو هجرٍ مُجحف، أما من اشتكى جاره لحائط يبنيه، أو رائحة طعام تؤذيه، فيذكره بوصية أوصاها المصطفى حتى ظن السامع أن الجار يُورَّث، فإن وجده على شكواه يُصرّ، كتبها غير قاصد بالضُّر ضُر، فيختمها بإصلاح لا بإفساد ذات البين، فكان ناصح مُعِين، يرسل مع شكواه الرأي والمشورة، فيأخذها القاضي على محمل الجد، فينأى بحكمه عن الإجحاف والحيرة.

"المنصور" يعي جيدًا أن حلمه إذا مات، أو قُتل في قرطبة فحتمًا سيموت في كل بقاع الأرض، لذلك هو يتشبث بالباب غير مستعجل فرجًا، فداخله يقين لا يُردّ، ورجاء لا يُحدّ، لكن حكاية كانت تلاحقه دائمًا، فالرجل الحالم الذي علَّق أمانيه في جناحين من الريش، وطار بهما من فوق المئذنة، هوى سريعًا؛ لأنه قد نسي أن يُعلِّق قلبه بنور العشق، قبل أن يتعلق بجناحيه في الفراغ، فقذفه الغافلون بالكفر؛ لأنه تعجل حلمًا كاد أن يقتله، فمات في منأى عن الناس، لكن حلمه ظل حيًا لم يمت، وتناثرت أسباب السقوط، وتعددت ما بين شمع انصهر من حرارة الشمس، أو ذيل أهمله الرجل فسهَّل على الأرض قنصه، ومهما تعددت الأسباب والعلل، فالحلم لا يموت بعلة وسبب.

أنهى "المنصور" ركعتي الفجر في المسجد الجامع، وجلس يتأمل مصير من سبقه من ذوي الأحـلام، والـذي انتهى في هـذا المكان بمحاكمة قضت بحياة أو موت، ومن ثم ازدرد ريقه، وتحسس عنقه بسبَّابته وإبهامه، ثم رفع يديه للسماء يدعو الله أن ينجيه بحلمه من سلطان جاهل، أو عالم فاسد، أو امرأة لعوب، فحدق "العارف" في وجهه، وابتسم.

خذ من دعائك رجاءً يُستجاب، واطرح أمانيك التراب، فالرمال تتهم الماء والعطر، والبحر يلفظ من جوفه الموت، أما في السماء فرزق لكل حي يصعد، ولا تحسبن دعاءَ الدراويش هراءً؛ فصمتهم ذنب لا يُغتفر، فجاور أحلامهم دائمًا، فقلوبهم تنساب من السماء، وإذا حسبت علمهم هذيانًا، فلا عقل لك يفقه إلا حديث آخره فناء، وما ألوان الدنيا إلا وَهم ينتهي بأبيض وأسود، أما ألوان الجنة فنور ويقين.

لمح "المنصور" نور" العارف" يبزغ كالشمس من قلب المحراب، فلم تقاوم عيناه ما رآه، فراح يبتعد ابتعاد المفزوع المرتعب، ولولا أن أتاه البشير يخبره بأن القاضي "محمد بن إسحاق" يطلبه، لاحترق كما تحترق الطيور المحلقة فوق قمم الأعلام المشتعلة، فلبى الذي جاء ينجيه من هيبة "العارف" بجلال السلطان؛ فالنور لا يتحمل وطأته إلا

من كان قلبه عامرًا بالنور، فليس كل ما يضيء في القلوب نورًا، فبعض الضوء يأتي من الظلام، أما النور فيُولد من نور، فوق نور، فوق نور، فوق نور، يُوقد من نور، يُضيء نورًا، فيُضاء نورٌ، حتى يأتي يومٌ يتوقف فيه كل بريق، وترتشف الكوَّات الضوء، وتلتئم الشقوق، والمنافذ، وتموت كل المصادر، وتعود العتمة الكبرى ترتع بيننا من دون مقاومة لشعاع ضال، ويلف السواد السواد، فحتمًا ستشرق الأرض بنور ربها.

أشرق وجه "المنصور"، حينما نُودي في الحراس أن يزيحوا له أبواب القصر، وأصبح طريق الحلم ممهدًا أمام أولى الخطوات، فمشى مشية الواثق، منتصب القامة، مرفوع الهامة، يسير كما القوافي في قصيدٍ مفتخِر، أما عن عينيه فقد أغمضها، وراح يرى نفسه كما رآها في نفسه، حقيقة لا خيال، فهو البائع الجوال مع حماره الذي سبقه حلمه إلى العرش، فجلس وتربع، ومنح أصحابه أمانيهم تحت ظل الشجرة في الجزيرة الخضراء، فقصدوا منها مُزاحًا، وقصد منها الجد، فظل ينسج خيط الود ليطال السماء، والسماء فقط.

استقبله القاضي بوجهٍ واجم، فلم ينخدع "المنصور" بقسوة أرداها الوقار، ولم يهتز له جفن لسلطانٍ طلبه يحمل مصائر البشر، فهناك من يسكن السماء وهو أرحم الراحمين، ففطن "ابن إسحاق" ما أسرَّه

الفتى، وفضحته عيناه، فبسط له يده مصافحًا، ثم أومأ إليه بالجلوس بين يديه، وطفق يسأله عن اسمه فلما أجاب "المنصور" بأصله وفصله، ونسبه العامري وحسبه، عاد يسأله عن أبيه الذي كان يعمل قاضيًا ثم رحل، فأردف قائلاً:

-أبٌ يرحلُ ويأتي من صُلبِه من يُكمل المسير.

فاستحسن "ابن إسحاق" مقاله، وراح ينصّبه كاتبًا، وكاتمًا لأسراره، بعد أن تفرس فيه أن يكون مثل أبيه الذي وضع لأمانيه حدًا، وعاد إلى بيته غير عابىء بمنصب يأخذه إلى دنيا هو عنها راغب، فاختبأ الفتى خلف عمامته يغض الطرف عن بريق خرج من أجله ملبيًا، فلم يتسرب منه ما يوجب الريب، وظل يعمل بجد، حتى لاح له ما في الغيب، فـ"صبح" صارت تطلبه في خدرها؛ لتأخذ بمشورته بعد أن أصبح الخليفة مريضًا لا يبرح مخدعه، فآلت لها مفاتيح كل شيء، بعد أن صار ابنها "هشام" وليًا للعهد.

فداعب الحب قلبيهما، ودغدغ موت الخليفة حاجز الصمت بينهما، حتى باتا نجمين يحلقان بين صفحات المحبين، ينسج العشق لهما مذهبًا، وحدًّا لا يتعدى الرُوح، والقلب، والهُيام، فصار حبهما آية يتغنى

بها المريدون، ويجمع من سيرتهما الجامعون، فذاع الصيت وأصبح يُضرب بحبهما المثل بين الحكائين في قصصهم، وبين الشعراء في قصائدهم، رغم ما أشيع بين العوام أن "صبح" قتلت مولاها؛ لتنفرد بحب الفتى الذي أشقاها، لكن سرعان ما طغت لطائف الحب على من بغى، وعاد ما كان قد حاد عن الهدى، فذاب كل شيء وانتهى.

وأصبحت سيرة "الحكم المستنصر بالله" في خبر كان، وطفت سيرة ابنه "هشام"، الصبي الصغير الذي يحتاج إلى وصي ونصير، فاختارت "صبح" حبيبها "المنصور" ليكون حاجبًا للخليفة، يدفع عنه كل نائبة، ومصيبة، فلا مطمع لرجل ليس من نسل الخلافة، بعد أن تصارع الأمراء طالبين حكمًا هم له أحق، لكن "صبح" دائمًا ما تحسن التدبير، فأحكمت قبضتها على كل كبير، وصغير، وباتت الدنيا كلها في أيديها، وأصبح المنصور على بعد خطوات من العرش، يجلس جوار الخليفة "هشام"، يصدر الأوامر، ويسك الأختام، ويمسك بالزمام، فبقلبه كان يرى "صبحًا"، وبعينه يرى نفسه وقد أصبح المُلك على مشارف أمانيه، التي طوحها هناك تحت الشجرة في الجزيرة الخضراء.

-في قرطبة كل شيء يتحقق.

أسند "العارف" قلبه إلى راحتيه، ثم أغمض عينيه ليرقص بعيدًا.. بعيدًا، هناك على دروب الملكوت الرائع، ثم رفعهما فوق رأسه؛ ليفصلها عن عالم المعجزات المبهمة، التي تنبت من عوالق الأرض، وشوائبها، حدق مليًا في اللوح الذي دُونت عليه أمنيات البشر الواهية، ثم التفت إلى "المنصور"، الحاجب الذي حجبته أحلامه الأرضية عن شق الرتق، لينفذ إلى رحم الحياة الخالدة، وهمس في أذنيه قائلاً:

- كيف تضع يدك على قلبك ولا تشعر أن الله معك؟

ليس في قلبك سوى مهجة، كلما رانت راقت، وكلما تجددت عادت، وكلما عشقت زادت طمعًا، لكن إن أصابها سواد، سلَّمت نفسها للمطر، فاصعد، اصعد، إلى حيث المنتهى الأول، فليس الطريق وحده ما يأخذك إلى حيث المنتهى، فهناك من الطرق ما لا ينتهي، لكنه النور وحده ما يجمع كل النهايات.

فالعين ترى يا فتى ولا تؤمن، فترى النور ولا تضيء، وترى الظلام ولا ترى ما يستره، لكن القلب يرى كل شيء ولا نراه.. ولكنه وحده من يؤمن بما يراه ولا نراه، وإن الشر هو خير لمبتغاه، أما الخير فهو خير حتى أمد الدهر، فلا الضر يأسرك أبدًا، ولا بالنفع أنت نبي مُرتجى، أما إذا ساورك الشك، فارفع يديك إلى السماء؛ كي تحملها عنه، فانظر إلى

أعلى دائمًا، حيث ترى بين خطوط الكون طلاسم السمو، ولا تخفضها حتى تؤمن بأن موسى قد غفل، فهوت القارورات من بين يديه وانكسرت، لكن عين الله لا تنام، وما بيديه لا يهوي أبدًا إلا بأمره، والرُوح توَّاقة، فأطعِمها، فهي النجاة التي تأسرك؛ لتطرق أبواب الجنان، فاركض برجلك نحو الحيوان الأبدي، فهناك ستجد ما يحملك إلى حيث قُدِّر لك، وابتسم لذنوبك؛ لأنها قد فارقتك بارتكابها، وتعلق بالحسنات؛ لأنها سترفعك للسماء، واقبض على قلبك؛ لأنه عن المعاصي مُنَزَّه، وازهد حواسك؛ لأنها شاهدة عليك يوم اللقاء، ولا تبتئس من المآسي؛ فهي كماءٍ عذب، يُخفف به منقوع من الملح.

صمت "المنصور" هنيهة، لكنه عاد يصغي إلى "صبح" حينما جذبته إلى حديثها المعسول، تردد كثيرًا قبل أن يخبرها بمن يهاتفه، لكنه أخبرها بالفعل، فنظرت إليه مندهشة بعد أن ارتفعت ضحكاتها في دلالٍ لافتٍ، فانقضى الصوت في نفسه وانتهى، لكنه عاد يقسم بحبه لها أنه منذ وطأت قدماه أرض قرطبة وهو يسمع هذا الصوت الذي يأتيه من حين لآخر، فزادت "صبح" من ضحكاتها قائلة:

-ربما هي أضغاث أحلام، أو عفريت من الجن.

ثم استنكرت عليه ذلك، فكيف لقائد الجيوش، وحامل لواء الخلافة، وحارسها، أن يستسلم لرُوح عابرة جاءت تقصيه عن السبيل؟!

فتعجب "المنصور" من ردها، وهو يضمر في نفسه نور المحراب الذي بزغ في قلبه، لكن نفسًا أخرى تنازعه انطلقت من نفس أحلامه، فقرر أن يضع فوق قلبه حجرًا، وراح يمضي في طريقه نحو باحات الأرض الواسعة.

أصبح "المنصور" الآن أقوى مما كان، فكان كما يجب أن يتمنى، فتربع على العرش بعدما أطاح بـ"هشام"، وسرق حلم بني أمية، الذي طاحت من أجله رؤوس، وأُزهقت تحت أعمدته نفوس، وجرت بين شاطئيه أنهار الدماء، في المدينة، ودمشق، وكربلاء، بعدما تعلقت ذنوبهم بشعرة معاوية، حتى اختلطت المطامح بالصالح والطالح، فكان منهم من أفسد، ومنهم من عدل وأصلح، حتى آل المُلك لمن يشاء، فصار الحمّار ملكًا، تُسكّ العملة له بوجهيها، وجه لاسمه، ووجه نُقش عليه رأسه، فـ"المنصور" العاشق أصبح لا يعرف عن العشق سوى سيفًا يشق به الأرض شقًا، يُرعب به ممالك الغرب، حتى صار الأطفال يختبئون تحت الأسرَّة لمجرد ذكره، فخرّت أمام صولته التيجان، وأما جيشه الجرّار فقد لازمته الطيور الجوارح، تقتفي به أثر الرزق، حتى وطأ

أرض "ليون" في الشمال، فكانت له دولة لا تُحدّ، ولا تحويها عين تُمدّ، والمُلك كله لله الواحد الأحد.

جلس "المنصور" متربعًا على عرشه في مدينته "الزاهرة"، وطلب من حاجبه أن يأتيه بأصحاب كانوا له، تركهم تحت ظل شجرة في الجزيرة الخضراء، فلما مثلوا بين يديه، رآهم على حالهم منذ تركهم، فقطع دهشتهم بأن يعيدوا عليه سرد أمانيهم، فاستوزر الأول محققًا له ما تمنى، أما الثاني فأمر له بمال وتجارة، أما الثالث فتمنى أن يكون ترابًا، فقتله بعد أن أردته حماقته، لأنه كاد أن يقتل أمانيه قبل أن تُولد، فهو العارف الذي كان يعرف من أين تؤكل الأماني، فظفر بما تمنى.

بكى "العارف" واهتز قلبه، حتى فاضت أدمعه، لكنه لم يتوقف عن الرقص، فظل يدور، ويدور حتى تناثرت دموعه على الأرض كالنجوم، وصارت الأرض السوداء مرقطة بالنور، فخرج الصوت محشرجًا هذه المرة..

فلا عارف إلا بعلمه يفهمُ، فآدم حينما تعلم الأسماء كلها، فهمها سليمان، وظللنا نحن نتقلب بين علم وفهم، وكل مجهولٍ عُرف قبل جهل، وكل عارف جاهل بعلمه حتى يعرف ما يجهله، فطمئن قلبك دائمًا بالذكر، وارفق بنفسك فلكل غمة يسر، يعلوه يسر، وكل علم، يعلوه علم،

وما مصائب الدنيا إلا منع كبير، يُبتغى منه رحمة كبرى، فلا تضل طريق النور، وتعلق بالعارفين، الساجدين، المسبحين، الذاكرين، الشاكرين، الحامدين؛ فلا اسم لك في الدنيا أنت به تُعرفُ، ولا جسد يبقيك أبدًا تُخلدُ، بل وحدها خطى الطريق هي التي تجعل لك وقعًا في القلوب يُسمعُ، فانْهَمْ من علمه؛ حتى يغفر لك بعلم ينفعُ، وكن عارفًا، معروفًا بمعارف المعروف، فتعرفُ بحرف يظلك يوم تصبح الشمس منا أقربُ، ولا تكن كمن أتاه مفتخرًا بعمله طالبًا الجنان، فكان لنعمة البصر وحدها الرجحان.

طوّح "المنصور" سيفه يمنة ويسرة؛ ليقتل الصوت الذي أتاه، لكنه لم يكن يعلم أنه بلاغ يجب أن يفطنه، بعد أن وصل إلى أوج أمانيه، فكان عليه أن يرفق بمن وقف أمامه طالبًا عفوًا، لكن أخذته عزة ملكه بإثم أمانيه، فأراد اليوم قتل محدثه، فأمر بسدادات لأذنيه، لكنه مازال يجهل أن "العارف" يسكن خلف الأسماع، والأبصار، والقلوب، فارتفع الصوت أكثر وأكثر، فأمسك المنصور برأسه، وأخذ يدور في الإيوان، أما "العارف" فكان ما زال يرقص، ويرفل الكلمات ويخطر، فيتمايل حين يرق القلب، وينتصب حين يكلّ العود، فصاح "المنصور":

-اقتلوه.. أو حرقوه.

لكن أحدًا لا يسمع شيئًا، فالصوت لا يقصد إلا أصحاب الأمنيات، فخر "المنصور" راكعًا على ركبتيه، و"العارف" يرقص، ويرقص، ويرقص، ولم يكف الصوت، حتى عاد "المنصور" من معركته الأخيرة جريحًا، مضرجًا في دمائه، فالتف حوله ما بقي من أبنائه، فأخذ ينظر إليهم، ويوصيهم بألا يمخرون بأحلامهم بعيدًا عن البحر، حتى يصلوا إلى مبتغاهم، ثم أشار بيده اليمنى إلى "العارف"، الذي تجلى له في زهرة نبتت على شباك حجرته، حتى كان الصوت الأخير الذي أتاه:

انظر إلى أعلى دائمًا، واقرع الباب حتى يُفتح لك، تجاوز ما تراه بعينيك، فبصرك اليوم حديد، والشمس إذا طلعت يومًا من مغاربها فالرُوح تشرق دائمًا نحو السماء، فلا تحمل فوق رأسك خبزًا ولا على كتفيك بقرة ..ولا تقاوم حظك السيء ..فقد تفقد عمرك كله وأنت تبحث عن جنتك على الأرض ..فيتسرب من بين أصابعك كل شيء وتجلس تنعي حظك بعد أن تقترب منك النهاية ..فعش كما تشاء أن تعيش أنت.. ومت كما يشاء لك الله..

صعدت رُوح "المنصور" تطوف سماء قرطبة؛ لتنثر على قلوب الآملين ثرى الفناء، قبل أن تتخذ سبيلها نحو مستقرها الأخير، فنظر إليها "العارف" حتى باتت نقطة سوداء تتلاشى بين النقاط التي سبقتها

إلى هناك، فزاد من دورانه، زاد، زاد حتى انفصلت تنورته عن جسده، صارت نورًا، صارت زهرة، صارت طائرًا يحمل بين منقاريه رسالة لم تكتمل بعد.

١- رسالة القاهرة

حلق طائر فوق مآذن القاهرة..

النور يبزغ من بوابة "بيت القاضي" عند منتصف الشارع الأعظم، فيتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يتلاشى في منتهى الظلمة التي أحاطت بالمكان، لتعانق السكون الهارب من براثن الصخب خارج الأسوار، فأصبح المشهد صالحًا لاتقاط صورة نموذجية، يتمناها مصور محترف في هذه اللحظات، التي تنفرد فيها الشمس بمغربها عند نصف العالم الآخر، وكأن الشمس تدخل إلى القاهرة من هنا، وتغرب عنها من هنا أيضًا، قبل أن يصيبها الليل بسواده.

لم يكن "عارف حسين "يدري بعد قيمة المكان، الذي اقتطع منه حجرة صغيرة، يسكنها في منزل قديم داخل إحدى زواياه، بعدما نزح من الشمال، قاصدًا المجد على مسارح القاهرة، ففي القاهرة دائمًا ما تتحقق الأمنيات التي ترعاها الأضواء، فتحفها الآمال الميسورة التي

يستمدها الآملون ممن سبقوهم إلى هنا، لذلك كان الفتى يتقمص شخوصه ببراعة، ويحفظ كل دور يُسند إليه عن ظهر قلب، لكنه مازال يحظى بأدوار ثانوية لا تعينه على تحقيق ما يتمنى، ورغم ذلك هو يشعر بأنه سيصبح نجمًا كبيرًا يومًا ما، ولن ترده القاهرة مخذولاً أبدًا.

كانت صاحبة البيت فتاة ثلاثينية ذات ملامح صعيدية صارمة، بينما لكنتها الغريبة لم تؤكد ذلك، خاصة أنها تنحرف أحيانًا لتتحدث بلغة غير مفهومة، فسرها "عارف" بأنها ربما تكون لغة نوبية متحورة، لكن الفتاة السمراء رغم صرامتها، وجديتها إلا أنها مقبولة الطلة بصورة تُجبرك على التعاطف معها بلا مقدمات تطرح بها أسئلة على نفسك، فارتدائها لجلباب أبيض فضفاض أقرب إلى الذوق الرجالي منه إلى النسائي، وغطاء أخضر للرأس موثوق بإحكام يتناسب مع عينيها الحوراء الثابتة، وكفها الأيمن الموشوم بوجه رجل مثير للإهتمام، يخلق منها ملهمة لشخص جاء يحمل الأمنيات معه في حقائب السفر، فيوم استأجر منها تلك الغرفة الصغيرة ذات الحمام المنفرد في الداخل، والنافذة المطلة على مقعد الأمير "ماماي"، أخبرته بأنه لم يسكن تلك الغرفة سوى العظماء، فابتلع الفتى قولتها واعتبرها نوعًا من المبالغة لتجميل بضاعة راكدة.

لكن بعد مرور الليلة السابعة وهو في المكان، لاحظ أن شيئًا ما يحدث اعتبره غريبًا نوعًا ما، فقد توالت أحلامه في المنام، وأصبحت الوجوه مسرحية مكررة تقترب منه وترحب بوجوده بينهم، فيخلع أحدهم قلبه ويضعه في صدره، ويأتي آخر وينزع وجهه ويلصقه على وجهه كما لو كان قناعًا، أما الثالث فيتبرع بملابسه التي تتطابق مع ملابس فتاة المنزل ويكسو بها جسده العاري، بينما يتسلل ضوء خافت من النافذة ليطبع الوشم ذاته المرسوم على كفها الأيمن فوق الجدار المواجه، فيرى نفسه يدور تحت المصباح المتدلي في منتصف الغرفة، ترتفع قدماه عن الأرض وكأن ملاكًا يسحبه إلى السماء بخيط من حرير، فيفصل رُوحه عن جسده المستلقي على السرير المنزوي في أحد أركان الغرفة.

وهنا ينتهي الحلم حينما ترتد إليه رُوحه مع صوت آذان الفجر الذي تحمله دفقات البخور الصباحية من مسجد "مولانا الحسين"، لتبث صداه في شرايين العارفين التي تنتفض قلوبهم الوجلة تبحث عن مقعدها بين حبات مسابح "الكوك"، و"الصندل"، و"العاج" التي تملأ الدكاكين في الشوارع، والأزقة الضيقة.

لم يقصص "عارف "رؤياه على أحد، ولكن النور ظل يمتد من أمامه

وخلفه، ومن فوقه وتحته، وعن يمينه ويساره خلال يقظته الطويلة التي بات يستجدي منها نومًا طفيفًا، كان المخرج المتسلط قد أسند إليه دور حارس صامت في مسرحية الملك "لير"، بينما اضطر لطرده؛ لأنه قد غفا خلال العرض، وأسقط الحربة من يده، مما تسبب في ضحك الجمهور خلال مشهد تراجيدي يستوجب البكاء، فقرر أن يخبر صاحبة المنزل بأنه سيغادر الغرفة، ويبحث عن سكن آخر لإقامته، بعد أن تسببت الأحلام الغريبة في طرده، لكنه تردد حينما داهمته بما يفكر فيه، وأسمعته إياه قبل أن ينطق به، فعدل عن قراره مجبرًا؛ لأنه أيقن بأن شيئًا ما يحدث في هذا المكان يخصه، لكنه ليس سحرًا على أي حال، فمنح نفسه مهلة أخرى حتى نهاية الشهر؛ خاصة أن كل ما لديه من مال لن يكفيه، إذا فكر في استئجار غرفة في مكان آخر، بعد أن أصبح عاطلاً، وعليه أن يكثف بحثه عن عمل يسترزق منه، ويحقق به أحلامه، بدلاً من بحثه عن غرفة جديدة، فقد تعود تقريبًا على ما يشاهده كل ليلة خلال نومه، فأصبح يغط في نوم عميق، أو خُيل له ذلك، رغم تكرار الحلم كل ليلة بشكل منتظم.

لكن الشيء المعتاد غالبًا ما يكون مريحًا، حتى لو كان مؤلمًا، فبات يحفظ تفاصيل الوشم عن ظهر قلب، فالوجه الذي بدا مخيفًا للوهلة

الأولى صار مألوفًا له، لأنه وجه زاهد اعتلته حمم الدهر، فتسببت التجاعيد والقسمات الذابلة في خلق ملامح مرعبة، لكن دموعه الرقراقة المحتجزة بين مقلتيه توحي بأن هذا الوجه لقلب طيب، كل ذلك كانت تعلمه صاحبة المنزل؛ لذلك لم تكن توجه له أي سؤال، فقط هي تواجهه بما يفكر فيه بأفعال واقعية، فتحقق له رغباته الممكنة، حتى أن الأمر قد وصل إلى ما يشتهيه من طعام وشراب، بينما كانت تطلب منه الصوم إذا فكر في اشتهاء جسدها.

لكن العجيب أنها لم تقدم له فاتورة حسابه حتى الآن، رغم أنه هو الساكن الوحيد في المنزل الممتلئ بالغرف المغلقة، فعلل ذلك بأنها تنتظر حصوله على عمل مناسب؛ لتطالبه بحسابه دفعة واحدة، بعد أن علمت ما فعله معه المخرج المتسلط خلال عرض مسرحية "الملك لير"، وفشله في أداء دور الحارس الصامت، والغريب أن "عارف" لم يكن مندهشًا من ذلك كله، ربما لأن كل ما عاشه خلال تلك الفترة القصيرة التي قضاها في هذا المكان مثير جدًا، لدرجة أن شيئًا عاديًا لم يحدث حتى الآن.

كان طائر يحط على شباك الغرفة كل صباح، يطرق النافذة بمنقاره ثلاث مرات أو يزيد قليلاً، ثم يرحل إلى حال سبيله، في بادئ الأمر

ظنه "عارف" طائرًا مهاجرًا جاء ينحت عشه داخل صخور المنزل الهشة في الخارج حيث لا أثر لعيدان القش، بينما لم يعبأ بوجوده، فحلمه الكبير يطغى دائمًا على تفكيره، حتى أنه لم يترك داخله حيزًا كافيًا لاستيعاب مثل تلك الأحداث الصغيرة، فمن أمامه نقطة محددة لا يحيد عنها، يصوب إليها أفكاره، ويطوف حولها في كل وقت.

لكن حدثته نفسه بأن يضع له القليل من الماء، وبعض حبوب القمح ليقتات منها، فربما تلك هي أقصى أمانيه في الحياة، فأحب أن يكون سببًا في تحقيقها، خاصة أن الله قد سخّر له صاحبة المنزل لتطعمه وتسقيه، في الوقت الذي فقد فيه سبيل الرزق والآمال على يد المخرج المتسلط في الليلة المشؤومة، لكن الطائر كان قد انقطع عن طرق النافذة منذ قام بهذا الفعل، فانتبه لغيابه، وشعر بأن هناك رغبة ملحة تقوده لانتظاره كل صباح، حتى جف الماء ونثرت الرياح البذار هنا، وهناك، فاندهش لهذا الغياب غير المبرر، فوقع أسيرًا لرغبتي الانتظار، والترقب.

لم تسأله الفتاة عن سبب شروده، لأنها تعلم كل شيء، وتمتلك كل الإجابات التي تحيره، ريثما هي تترك كل النقاط لتسقط على الأحرف في الوقت المناسب، وفي اللحظة المناسبة، وعلى الجانب الآخر لم يكن

الفتى مصابًا بحمى الفضول والثرثرة، هو فقط يقوم بتقمص الأدوار التي يُرزق بها من حين لآخر، فهو لا يعلم اسمها حتى الآن، ولا يعرف أين تبيت كل ليلة وتتركه وحيدًا ملازمًا للسكون الذي يخيط المكان بمثقاب دقيق، ثم تعود قبل شروق اليوم التالي؛ لتصلي ركعتي الفجر في البهو السفلي، قبل أن تبدأ في تقديم الخدمة لزبونها الوحيد.

فكر "عارف" مرارًا وتكرارًا أن يغادر، أن يفر، ويهرب من هذا الغموض خاصة أنه شخص مسالم لا يهوى المغامرة، فنشأته الهادئة في قريته الصغيرة المطلة على النيل جعلت منه إنسانًا متأملاً فقط، يدَّخر الأحداث في ذاكرته ولا يشترك في صنعها، بل يكررها كما هي بعد أن تنتهي، فقد تربى في منزل عمه بعد أن ماتت أمه خلال ولادته، وانقطاع أثر أبيه الذي كان يعمل بنّاءً في العراق، فقرر أن ينسى حياته الخاوية التي امتلأت بالقسوة ويعيش حيوات أخرى لا يشعر فيها سوى بفرح مصطنع، وألم زائل، فجاب القرى المجاورة بدُمى "الماريونيت" التي يحركها بيديه، ويحكي بها قصصًا للأطفال ليست من صنع الخيال، حتى انتهى به الحال أن يكون هو نفسه دمية ضخمة تنتظر نصيبها من الأحداث، وتحمل أمنية وحيدة جاء يستلهمها من القاهرة.

حدق "عارف" في وجه فتاة المنزل وكأن أحدهم تبرع بطلاء جسدها

بمنقوع القهوة العربية، حينما أخبرته بأنها ستغيب عن البيت سبعة ليالٍ تقضيها في خدمة مُريدي "مولانا الحسين "الذين قصدوا مقامه من كل حدب وصوب ليتباركوا بمولده، وهنا بادرها بالسؤال عن اسمها فأجابت مبتسمة:

-اسمي يجمع كل صفات النساء.

فاندهش من غموضها المغرق حتى فيما يتعلق بأتفه الأشياء، فابتلعت ابتسامتها قائلة:

-لا تغلق نافذتك دائمًا وستحصل على كل الإجابات.

فأجابها بلا تردد:

- انتظرت طويلاً حتى جف الماء ونثرت الرياح البذار.

- لا تفرض على الطيور أمانيها فربما تأتي بما تتمناه أنت.

انصرفت الفتاة تشق طريقها في هدوء دون أن تلتفت إلى الخلف، فتسمّر الفتى في مكانه حينما سقطت إجابتها الواثقة من فوقه كخرير ماء على رأس حليق، بينما لم يمنح نفسه فرصة للتفكير في حديثها المبهم، فأسرع ليقذف درجات السلم الخشبي بقدميه حتى قاده إلى غرفته في الطابق العلوي، لملم ملابسه المتناثرة في حقيبة سفره، ثم

دسّ ما تبقى معه من نقود تحت الوسادة، وهمّ بأن يخطو خطوته الأولى نحو الرحيل، فإذا به يسمع دقات الطائر الثلاث، وقد عادت تلاحقه من خلف النافذة.

غرس قدميه في الأرض، ألقى بحقيبته سريعًا إلى حيث لا يعلم، ثم هرع ليزيح النافذة عن الجدار، فرأى قنبرة صغيرة تقف أمامه في استسلام، مد يده إليها ليلتقطها بحرص شديد، فبادرته بحبة قمح كانت تقبض عليها بطرف منقارها، ثم غابت بين الطيور التي جاءت لتحلق في سماء المكان، احتفظ "عارف "بحبة القمح التي أضاءت بين أُصْبُعَيه، أخذ يتفحصها في ذهول، ثم قذف النور بجسده المنهك على السرير، بعد أن أثقله قلبه الذي أخذ يقرع بين ضلوعه بلا توقف، وراح في نوم عميق، ارتفعت المآذن تدوي بالآذان، فاحت رائحة العود والصندل، والزعفران، اهتزت حبات المسابح في الدكاكين وفي أيدي الذاكرين، انتصبت التنانير في الهواء تنثر الوجد، علا ذكر المريدين من المقام..

اللّه ..اللّه ..اللّه.. اللّه

اللّه ..اللّه ..اللّه ..اللّه

اللّه.. اللّه ..اللّه ..اللّه

انتشر الصوت وتغلغل في المكان، غمر السكون، اعتلى المآذن والقباب، والأبراج، انبسط في الأجساد، سرى في العروق، تأرّج كالعطر بين قلوب العباد، وبين شقوق البيوت، والأزقّة، والحجار، ولما لاح ضوء الفجر ليرتشف الدّجَّة، انطفأ النور الذي لا ينطفىء، وخفت الصوت الذي لا ينقطع في الأرض، أو في السماء، وعادت الدنيا كما لو كانت قد قضت ليلتها في الجنة، وهبطت مع شروق الشمس التي داعبت أشعتها وجه "عارف" بعد عبورها النافذة، فكانت سببًا في إيقاظه إثر سبع ليالٍ قضاها في نوم عميق، بينما لم يكن يعي ما حدث بعد، كما أنه عجز عن حساب الوقت الذي استغرقه غائبًا عن الدنيا، بعدما اكتشف أن ساعة يده قد أصابها العطب، وتوقف داخلها عداد الأيام، أما عقاربها فقد تجمدت عند الثانية عشرة تمامًا، لم يعبأ بالأمر كثيرًا فربما لبث في نومه ساعة، أو بضع ساعات.

كانت "أسماء" قد عادت للتو من مسجد الإمام، فصعدت إلى غرفة الفتى تحمل إليه نصيبه من نفحة المولد؛ لحم، ونابت، وخبز، وزبيب، فهي تعلم جيدًا أنه في أمس الحاجة للطعام، والشراب بعد خواء معدته سبع ليالٍ متتالية، كانت بمثابة سفر طويل لا يعلم عنه شيئًا، بينما هي

خطواته الأولى التي يخطوها إلى عالمه المنتظر، وآن له أن يستعد للتخلي عن أثقاله شيئًا فشيئًا، لينفر برُوحه إلى حيث قُدّر له، فإذا مات "عارف"، وُلد غيره يطوف حول مدار النور، فيظل صوته يحلّق بالذكر دون انقطاع.

طرقت "أسماء" الباب ولم تنتظر بل دفعته برفق وسارت بخطوات حثيثة حتى توقفت أسفل المصباح المتدلي، فانعكس ظلها يملأ جدران الغرفة الأربعة، حدّق "عارف" في وجهها طويلاً، ومدّ يده يلتقط صينية الطعام، ثم افترش الأرض، وأخذ يتجرع المياه، ويأكل الطعام، بنهم الجائع والظمآن، فوقفت تنظر إليه للحظات بأعين زائغة كأنها لا تنظر إليه، وتراجعت بخطواتها مغادرة الغرفة دون أن تنبس بنبت شفة، لكن بقي ظلها يحاصره حتى انتبه لرحيلها، فتلاشى الظل سريعًا وحل محله ضوء المصباح، ولما انتهى من طعامه، وشرابه، هرع إلى النافذة ليجذب إلى رئتيه حفنات من الهواء البارد، لكنه تفاجأ عندما نظر إلى السماء بأنها قد امتلأت بالأهلّة الصغيرة التي تطوف حول نجم كبير في المنتصف تمامًا، فَرَكَ عينيه المحمرتين، وأعاد النظر كرّة أخرى، فاكتسحت وجهه غلالات من العرق، وراحت شفتاه المرتعشتان تهمهم، بل صرخ من جوفه:

- يا الله!

ابتسمت "أسماء" في الأسفل حينما تدفق إلى سمعها صراخه، وخرّت ساجدة.

في صباح اليوم التالي عاد كل شيء كما كان، بعد أن نثر أحدهم فوق رأس "عارف" غبار النسيان، لكنه يشعر ببصيص نور يلتهم من جوفه الظلام، فسار في الشارع على قدميه ينتزع نفسه من بين زحام المارة وكتلهم المتداخلة مع الجدران العتيقة في شارع "الموسكي"، "الأزهر"، و"العتبة"، ثم تلاشت خطواته على الأرصفة المكتظة بالباعة، حتى وصل إلى مسرحه منهكًا عند الظهر، جلس في المقعد الأخير يشاهد "البروفة" التي يديرها المخرج المتسلط، كان كل شيء على ما يرام، بينما تظهر علامات الرضا على الجميع، وبقي فقط خروج الملك "لير" على خشبة المسرح برفقة نديمه، ليؤدي دوره التراجيدي المبكّي الذي يظهر فيه ساخطًا على ابنته الصغرى، لكن حدث أن خرج النديم "بهلول" وحده من دون الملك، وقبل أن يقفز المخرج المتسلط ليسبَّ "لير" بأمه وأبيه، انطلق "عارف" من الظلام ليؤدي الدور ببراعة فائقة أجبرتهم جميعًا على التصفيق له بحرارة، فاضطر المخرج أن يعيده إلى الفريق ليؤدي دور الحارس الصامت حامل الحرباء.

لم يعد دور البطولة هو ما يتمناه "عارف"، فدوره كحارس صامت سقطت حربته سهوًا كان أشد تأثيرًا على الجمهور من هذا الدور التراجيدي المبكي، فنوبة الضحك الهستيري التي سببها لم يستغلها المخرج الأحمق لصالحه، فإصراره على إخراج المشاهد بصورتها النمطية أدى إلى عزوف الجمهور عن شباك التذاكر، وأمسى المسرح يستقبل فقط الباحثين عن مخبأ مظلم يقضون فيه حاجاتهم التي يمنعهم النور عن إتيانها في الخارج، لذلك صارت كل الأدوار ثانوية لا فائدة منها، ولو أنهم اكتفوا بإغلاق الأنوار لأدوا الغرض الذي من أجله جاء الجمهور، بعد أن صار الجميع يقدس الظلام، بينما هم فقط من يعبثون بالنور ظنًا منهم أن الجميع جاءوا لرؤيتهم، لكن الحقيقة التي غفلها هؤلاء أن النور الذي يعبثون به هو ضباب كثيف يفصلهم عن العالم كله، فباتوا يؤدون أدوارهم في الخلف دون أن يشعر بهم أحد.

أسقط "عارف" حربته عمدًا ليفسد الدور التراجيدي بضحك الجمهور الهستيري، لكن الجمهور لم يضحك هذه المرة، ولم يلتفت إليه من الأساس، لذلك لم يغضب المخرج المتسلط، ولم يطرده من الفريق، بل أسند إليه دور أحد جنود الجيش الناطقين بحوار مقتضب، لكنه رفض بشدة، وطلب منه بلهجة المتعجرف أن يسند إليه دور البطولة،

على أن يكون الملك "لير" ذاته، فرحب المخرج بذلك دون أدنى تفكير، وأعلن الخبر العظيم أمام الفريق كله بعد أن عقد حفلاً كبيرًا لتتويجه بطلاً، فتلقى التهنئات، والابتسامات الصفراء من الجميع، لكنه شعر بنشوة أفسدت عليه متعة طموحه الكبير بوصوله إلى مبتغاه، فنهض من مكانه معلنًا رفضه للدور، على أن يعود مرة أخرى لدور الحارس الصامت الذي يُسقِط حربته سهوًا، فغضب المخرج المتسلط غضبًا شديدًا، واحمرّ وجهه، وطرده من الفريق إلى الأبد.

عاد "عارف" إلى غرفته بعد أن تخلص من حلمه القديم، وآن له أن يبحث عن حلم آخر لكنه يعيش فراغًا قاتلاً الآن، فماذا بعد أن رفض فرصة عمره التي قدمها له المخرج المتسلط كلؤلؤة على طبق من ذهب؟ هل يفكر في أن يبحث عن فرقة أخرى يسند إليه مخرجها دور حارس صامت آخر في مسرحية أخرى؟ أم يفكر في أن يصبح هو المخرج ذاته الذي يوزع الأدوار على الفقراء، والمساكين؟ أم يتنازل عن كل هذا وذاك ويهبط بعرائس "الماريونيت" إلى شارع "المعز" يحركها للأطفال ويعيد قص حكاياه الواقعية؟

لكن حيرته لم تدم طويلاً بعد أن قاطعته نقرات الطائر الثلاث على النافذة في الخارج، فمد يده بتخاذل وفتحها على مهل، فلم يعد الأمر

مثيرًا له بالقدر الكافي، فهو يحتاج إلى ما هو أكبر، وأعظم بكثير من كل تلك الأحداث الرتيبة ليعود إليه الشعور الرائع المحفوف بالشغف الذي أتى به إلى القاهرة، لكن يبدو أن في الأمر شيء آخر أبعد من الأمنيات التي يرتجيها، فهو على يقين تام بأنه سقط في هذا العالم نقطة صغيرة تافهة، سترتد إلى السماء يومًا ما نجمًا كبيرًا جدًا أكبر من كل خيال البشر، فكل ما يعيشه منذ وُلد من رحم الموت يقذفه إلى حكمة كبيرة لا يعلم غايتها بعد، فموت أمه قبل أن يراها، وانقطاع أثر أبيه قبل أن يتحسسه، أو يشتم رائحته، وقسوة عمه، وزوجته، وأولاده، وحظه السيء الذي لا يغادره حتى وهو في أوج سعادته، يجعله يفتح يديه ليعانق مبهجة في انتظاره آجلاً أم عاجلاً، فليس من العدل أبدًا أن تنتهي حياته قبل أن يعثر على ضالته التي لم يحصل عليها أبدًا في تلك الدنيا، وإلا فما قيمة الحياة إذا دخلناها من باب مظلم، وخرجنا منها من باب أشد سوادًا؟

كان منقار الطائر خاويًا هذه المرة من أي شيء، كما أن معدته المنتفخة لا تنبىء بأنه في حاجة إلى الطعام، والشراب، لكن اللفافة الصغيرة المتدلية من ساقه اليمنى هي ما لفتت انتباهه، فوقف الطائر في استسلام ريثما حل عقدتها ثم انطلق سريعًا إلى السماء بعدما

استقرت بين يديه، أغلق "عارف" نافذته وأمسك باللفافة التي بدت أنها من جلد الرقاع، لكن قبل أن يهم بفتحها توقف قليلاً حينما رأى الوشم شاخصًا أمامه على الجدار مبتسمًا، فأيقن أن أحلامه المتكررة صارت حقيقة واضحة الآن، فهو الإنسان الواعي، العاقل، اليقظ لكل ما يدور حوله وليس بثمل، أو مخمور، فقرر أن يبادله الإبتسامة، ويلوّح له، فأومأ برأسه ثم تلاشى سريعًا.

لكن "عارف" بات يدرك أن حياته المبهجة التي يتمناها صارت قريبة رغم ما يعانيه من مآسٍ، لكنه اليسر الذي يتبعه يسر، مدّ أطراف أصابعه إلى اللفافة وفتحها، قلّبها يمينًا فيسارًا، لكنه لم يعثر على أي شيء سوى بضعة كلمات مصفوفة ومتداخلة بشكل دائري ولا تشير إلى أية لغة يفقهها، حاول مرارًا وتكرارًا أن يقرأ كلمة واحدة، أو حرفًا واحدًا لكنه لم يستطع الوصول إلى تفسير يرضيه، فطواها ببطء شديد، وشرد بعيدًا إلى الزمن الذي سقط منه سهوًا كما حرباء الحارس الصامت، حينما جاءته طفلة بعدما أنهى عرض عرائسه في إحدى القرى وسلمته ورقة بيضاء، وأخبرته بأنها رسالة من عند الله، ثم اختفت سريعًا بين الأطفال.

فحمل الورقة مندهشًا، لكنه لم يسلم تفكيره طويلاً لعبث صغار القرى،

فطواها وألقاها جانبًا فحملتها الرياح إلى حيث لا يعلم، لكن ملامح الطفلة الملائكية، ووجهها المستدير كما البدر، وتقاسيم وجهها المفعمة بالبراءة، ظلت تطارده في يقظته لا تبرح خياله، فعاد إلى القرية يداعب أطفالها بعرائسه؛ ليبحث عنها بينهم لكنه لم يعثر عليها قط، كما أنه لم يعثر على الرسالة التي ألقاها بيديه في فم العدم، فبدا الأمر وكأنه حلم عابر، أو خيال مر من أمامه في خلسة من الزمن، فظلت الكلمات القليلة التي ألقتها الطفلة على مسامعه كامنة داخله، فرسائل الله لا تُقرأ بل تتجلى في القلب دون أن ندري فتستوي مع الدماء، وتدور بين الخلايا المظلمة، فتضيء في تتابع مهيب كما المصابيح رويدًا، رويدًا، حتى تتعامد اللحظة التي نشعر فيها بالرضا على السماء فنحلق خفافًا غير عابئين بأثقال الأرض.

حمل "عارف" رسالته المبهمة، وأخذ يتجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا، يفكر ثم يفكر، في أمر حلقة الرموز التي التفّتْ حول رأسه كطوق يلازمه، وبينما هو على هذا الحال قاطعه الصوت، صوت عقارب الساعة التي عادت للعمل من جديد، ففطن أن هناك زمن قد بدأ للتو، لكن لماذا بدأ؟ وإلامَ يشير؟ ومتى يتوقف وينتهي ويتلاشى؟

إن هذه الأسئلة البسيطة التي يطرحها "عارف" على نفسه لا يعلم لها

سوى إجابة واحدة "إنها أقدار الله التي تتساقط علينا من السماء من غير موعد، وترحل عنا دون أن ندري."، فقرر أن يحمل الرسالة ويهبط بها إلى الفتاة صاحبة المنزل لعل الأمر يتعلق بها، بحث عنها كثيرًا لكنه لم يجد لها أثرًا في المكان الذي لفَّه سكونٌ وظلام عجيب، فتسمَّر في مكانه حائرًا حتى التفت إلى أبواب الغرف المغلقة التي تتسرب من ثقوب أقفالها خيوط نور تتجمع في بؤرة واحدة فوق مقعد الفتاة المخملي التي تركته خاليًا، فاتسعت حلقة النور أكثر، فأكثر حتى غمرت المقعد كله فصار يبرق في الظلام كقطعة بِلَّوْر مشتعلة، وتلاشى السكون أمام دقات دُفٍّ جاءت بوقع خافت تزف دفئًا يدفُ ذكرًا، وشكرًا، وتسبيحًا، فجثا "عارف" على ركبتيه من هول ما رأى، فرأى "أسماء" تجلس في مقعدها تمد له يدها مبتسمة، فمدّ إليها يده بالرسالة ببطء شديد حتى أسقطها في راحتها اليمنى، فانحسر الضوء، وسكن الصوت، وعاد كل شيء إلى طبيعته إلا من نسمات عليلة تسللت من بين الجدران لتداعب الشراشف البيضاء المتدلية على أبواب الغرف المغلقة.

حدّقت الفتاة في وجهه قائلة:

- انهض فأنت أكبر من كل الدُمى التي تحركها.

وقف "عارف" على قدميه متظاهرًا بالثبات، لكنه ما زال يسمع اندفاع الدماء في جسده كله، ينخر الحمض من معدته، ورئتيه، يطهر كل ثقوبه لتصبح نوافذ مشرعة يطل منها على حياته الجديدة المبهجة، تحدث "عارف" بلهجة واثقة:

-لقد نفدت كل قصصي الواقعية.

-لكنك لا تحتاج إلى من يقرأ لك الرسائل.

-إنها أحرف خيالية ومتداخلة غير مفهومة.

صمتت "أسماء" قليلاً ثم ردت إليه رسالته:

-لا تنتظر من امرأة عمياء أن تقرأ رسائلك.

- عمياء؟!

-لا أرى ما يجب ألا أراه.

-لكنك تقرءين أفكاري، وأمنياتي، ورغباتي بالفعل.

أطلقت "أسماء" ضحكات متتابعة، ثم تحدثت بلهجة متهكمة:

-وهل أنتظر الضوء لأبصر؟!

-وكيف تبصرين ما يدور في الظلام ولا تبصرين الضوء؟!

-هذا لأنني أحترف العيش دون أن أسقط يا فتى.

طوى "عارف" الرسالة التي قذفها أحدهم إلى نافذته، وغادر المنزل إلى الشوارع الضيقة المتخمة بزخم البشر، وأنفاسهم المتداخلة، يمخر في بحر أمانيهم التي لا تتعدى سنتيمترات تحتويهم على سطح الأرض، فما أدركه أقوى من احتماله، فكيف تكون فتاة المنزل عمياء وهي التي تصعد، وتهبط، وتخرج، وتدخل، وتطهي الطعام، وتحمله إليه كلما اشتهاه، وترفعه عنه كلما شبع، دون أن تتعثر، أو تتخبط، أو تسقط؟، وكيف ترى الألـوان، والنجوم، والطيور، والقمر؟ فتلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه يجب أن يرى، ويعي، ويدرك، ويصمد أمام النور، ويصعد، ويحلق، ويرتفع لأن أمانيه الكبيرة تنتظره حتمًا في السماء.

كانت أصوات الموسيقى تمتد من "الدرب الأحمر" إلى الشوارع الجانبية المظلمة، تضخ عطرًا وبهارًا، ونورًا شرقيًا، وتملأ الدنيا شغفًا، وفرحًا، وحياة، تتقافز الأرواح الطيبة على وقع رقصات السماء التي يحنو بها "العارفون" على قلوب العباد، فتتعالى صيحات الدراويش هنا، وهناك لتجذب إليها المريدين بمدد المداد، فلا تحسبن صياحهم هذيانًا، فصمتهم ذنب لا يُغتفر، وحياتهم حياة، وموتهم حياة، وحسابهم أن

كونوا ترابًا طاهرًا ينثر على الدنيا حياة، فيصيح المتجبرون تندمًا يا ليتنا كنا ترابًا وما وُجدنا في الحياة.

توقف "عارف" عند باب "وكالة الغوري" الذي سد عليه الزقاق الضيق فجأة، وكأنه سقط من السماء للتو، فأخذ يتأمل المتهافتين على المكان من الشرق، والغرب، لكنه لم يكن يمتلك ثمن تذكرة الدخول إلى حفل التنورة المُقام في الداخل، فشعر بقوة تلهمه أن يبرز الرسالة المبهمة التي طواها في جيبه للحاجب الذي يقف لتلقي تذاكر الدخول، فكشف "الحاجب" العجوز عن أسنان بيضاء مكتملة حينما بادله ابتسامة عريضة مرحبًا، ومفسحًا له الطريق، واصطحبه إلى المقعد الوحيد الشاغر الذي يتوسط الصف الأول، ثم أحنى له رأسه معربًا عن امتنانه.

جلس "عارف" مشدوهًا يقبض على رسالته، بعدما أيقن أن ما يحمله هو مفتاح ساحر لكل الأبواب المغلقة، وشفرات المفاتيح لا تُفسر، ولا تُبرر، هي فقط تُزيح الحوائل، والحواجز، والأبواب التي تقف شاخصة أمام المتسللين من عوالم الحمقى إلى عوالم "العارفين"، لذلك هم لا يسردون حكاياهم، أو رؤاهم على متطفل قط، ردّ "عارف" ظهره للخلف وأخذ يتابع من يقرعون الدفوف، ويطوحون التنانير ليمزجوا

ألوانها بالسماء، بينما عاد الحاجب يقف أمام الباب في الخارج ليجمع تذاكر الدخول.

٢-رأس الإمام

دلف "عارف" من باب المنزل قبيل آذان الفجر، كان الضباب المتكاثف يجثم على البهو الرئيسي ويحجب الرؤية تمامًا، فمشى على أطراف أصابعه يتحسس الأثاث المتناثر بعشوائية رائعة ليصل إلى السلم الخشبي الذي يقوده دائمًا إلى غرفته الوحيدة في الطابق العلوي، لكن بصيص النور الذي شق البياض ظل يجذبه نحوه شيئًا فشيئًا حتى استقر به أمام المقعد المخملي المتربع في الواجهة، لكنه لم يكن خاليًا هذه المرة، بل يجلس فوقه شيخ بوجه مألوف، وجسد مكتمل، ينشر أمامه مصحفًا كبيرًا، ويمسك بمسبحة من الكهرمان يقبض بأصبعيه على قصبتها برفق، ولما أتم الآية الأخيرة من سورة "التوبة" رفع رأسه ببطء شديد، وحدق في وجهه مليًا، فأراد "عارف" في هذه اللحظة أن يخرج عن دهشته ويسأل، ويسأل، ويسأل، لكن الشيخ حمل مسبحته المضيئة وقرّبها من وجهه فبدا الوشم الذي

يطارده حقيقة واضحة.

تراجع "عارف "إلى الخلف، بينما نهض الشيخ من مقعده وتقدم نحوه بخطوات دقيقة ثابتة، حتى توقف حينما وضع يده على جبينه الذي صار كقطعة من الجليد، بينما تحول جسده إلى قطعة من هلام مرتعش، فاندفعت الكلمات من بين شفتيه كجدول يتهادى منعلي:

- رأيت وجهك منقوشًا على كفها، وفي حلمي، وعلى الجدار.

- لم أكن وهمًا إلا في خيالك.

- أين اختفت صاحبة الدار؟

صمت الشيخ للحظات، وربت على كتفه، وابتسم له دون أن يجيبه على السؤال، ثم لملم مُسبحته ببطء شديد، وألقاها في راحته اليمنى وضم عليها أصابعه، وتحدث قائلاً:

- علّق رسالتك هنا..اجعلها تميمة في عنقك حتى يُفتح لك.

-أين ذهبت الفتاة؟

-أنا "عمران"، خادم الدار الجديد.

-وكيف ترحل الفتاة دون أن تفسر الـ..؟

قطع "عارف" سؤاله وأمسك بالمُسبحة الكهرمان، عقد الرسالة المبهمة في قصبتها، ثم علقها في عنقه، فتدلت وكأنها تميمة قديمة تُخفي وراءها لغزًا أسطوريًا غامضًا، أطرق الفتى برأسه لأسفل، وحمل التميمة بين يديه، فانطلق من جوفها شعاع ذهبي ابتلع ما تبقى من الضباب، وتسرّب في لمح البصر إلى الغرف السبع المغلقة، فتفتحت أبوابها في تعاقب مهيب، الباب تلو الباب، ثم غُلّقت في تتابع آخر لا يشبه التتابع السابق، الباب أُوصد تلو الباب أيضًا، إلا بابان متطرفان ظلا يتأرجحا يمنة، ويسرة، حسبهما "عارف" باببين أهملهما الضوء، لكنه سرعان ما عاد يسأل نفسه، أيهما باب الغرفة الأولى وأيهما باب الغرفة السابعة، فهو لا يعلم من أين يستهل الحصر، فكلتا الغرفتين المتطرفتين صالحتين لبداية العدّ، ونهايته في آنٍ واحد، فهذه هي الدنيا؛ لها بابان مشرعان وبينهما حكاية قصيرة، باب يبدأ من السماء، وباب ينتهي في السماء وكلا البابين صالحان للدخول والخروج.

أيقن "عارف" أن هناك حياة جديدة ستبدأ في هذه اللحظة، حياة سترسم ملامح أكثر وضوحًا لأمنية لا يعلمها بعد، لكن ليس أمامه إلا أن يسلم نفسه طوعًا لكل هذه الأحداث اللاخيالية كي يستطيع أن يصمد، ويستمر لأنه إنسان وُلد بلا حياة، ولا يمتلك جواهر يخسرها،

أو لبنًا مسكوبًا يبكي عليه، فهو الإنسان الذي لم يحصل على أي شيء سوى نفسه التي تتمنى، وتتمنى، وتتمنى، ولا تنتظر أن يتحقق شيئًا سوى أن نفسه تتمنى وفقط.

فالأمنيات هي رحمة الله التي يهديها للبؤساء ليستمر نورهم يملأ الأرض دون انقطاع، فالفقراء هم من يحققون للأغنياء أمانيهم العظيمة في دخول الجنة، والأغنياء هم من يحققون أمنيات الفقراء الصغيرة في بعض لقيمات تنقذهم من الموت، أما "عارف" فأمنيته تختلف كل الاختلاف عما يتمناه الفقراء، والأغنياء، وكل الكائنات التي تحلم بشربة ماء، وحبة قمح، وجناحين للتحليق، لكنه ما زال في انتظار برهان الله الذي سيتنزل عليه من السماء ليبدأ رحلة غوص، أو عبور، أو دخول، أو تحليق، لكنه لن يخوض رحلة للعودة، فمن يحلق لأعلى لا يهبط لأسفل، إلا لو كان شيطانًا لا يبغي للناس سوى العذاب، فيسقط رمادًا يتناثر على رؤوس المعدمين الذين فقدوا أحلامهم في الحياة، ويترقبون الغبار الذي سيغطي أجسادهم في القبور.

فمن فقد حلمه كمن فقد رُوحه، ومن فقد رُوحه لم يدخل الجنة، ولم يهبط منها إلى الأرض، فكُتب عليه أن يكون عدمًا في الأرض، وعدمًا في السماء، يتكاثف عليه الرماد ولا يُبعث منه أبدًا، حتى ولو قامت

الساعة وبُعثنا من قبورنا جميعًا، فالمعدمون لا ينهضون، فهم سكنوا الفراغ وعاشوا دون أن يشعر بهم أحد، ولا يُضار من ذنوبهم أحد، ولا يؤاخذهم عليها الله، لذلك هم تراب، يعيشون ترابًا، ويموتون ترابًا، ويُبعثون ترابًا، ويكونون ترابًا، فالأمنيات وحدها هي التي تخلق لأرواحنا أجسادًا مذنبة تسعى دائمًا لتحقيق الرغبات، رغبة في الحياة، رغبة في المال، والبنين، والجاه، ورغبة في الحب، والجنس، والنشوة، والسعادة، ورغبة في الخلود، وفي النهاية تبقى الأمنيات كما هي معلقة كالقطاف تتأرجح على الأشجار، تنتظر من يأتي لحصادها من جديد.

وقف "عارف" أمام الغرف السبع ينظر إلى أبوابها، ويترقب اللحظة التي يأذن له فيها خادم البيت بالدخول إلى إحداها، فالمفاتيح تُزيل الحواجز، والحوائل، والحوائط، لكنها لا تمنح الإذن بالمرور، التفت "عارف" إلى الشيخ "عمران" دون أن ينطق بكلمة واحدة، فكل ما يعيشه يستوجب الصمت، فالصمت آية يهبها الله لمن لا يستوعب المعجزات، حتى تتساوى طاقته المحدودة مع خوارق السماء، ابتسم الشيخ وأومأ له برأسه أن مُر، اعبُر، جرِّب، فربما هذه هي البداية التي نبتغيها جميعًا لنصل إلى قمة الدهشة.

خطا "عارف" خطوته الأولى فكانت كإيلاج جمل في سَمِّ الخِياط،

أما خطوته الثانية فكانت كخروج روح من فخار، أما الثالثة فلم يشعر أين يخطوها، فتقدم، وتقدم، حتى كانت الخطوة الأخيرة ككل حياته الماضية، ولما صار على مشارف الغرفة المظلمة إلا من أشعة متمردة تتدلى من ثقوب في السقف، التفت مرة أخرى إلى الشيخ، فعاد يبتسم إليه ويشير له بيديه أن اعبُر إلى الداخل باسم الله الرحمن الرحيم صاحب الأسماء كلها، وواهب النعم، والحياة، والنور، اعبُر خاشعًا واخلع نعليك ولا تلتفت إلى الوراء، فإنك الآن كحبة كهرمان مضيئة في مسبحة عابد، متعبد، ذاكر، يُذكر، مُسبح، سابح في مُلك الملكوت، فسبح باسم ربك الأعلى لترتفع، وتتحرر من جذور الطين التي أنبتتك قيدًا، مُقادًا، مقيدًا بالذنوب، تحركك الأهواء والرياح، وتقذفك هشيمًا بين الشقوق، فتعي أن أمانيك صارت هباءً بعد فوات الأوان، فانظر إلى أعلى واستقبل النور الأول بقلب سليم، لتكون ملاكًا يطوف حول الكون بإذن الله، يحمل نقطة، أو حرفًا، أو كلمة، أو كتابًا، فيصبح الكون كله أمام عينيك مضيئًا بالتسابيح، والذكر، وتتنزل عليك أجنحة تحملك إلى حيث لا تعلم، فتعلم أن هناك قلبًا يسكنك يشتاق، وتتعلم رموزًا، وأسماء يشكلها السحاب في الآفاق لا يقرأها سوى أنت، ولا يبتسم لها سوى أنت، ولا ترسم سوى وجهك أنت، فلا حائل بينك

وبين علمك يمنعك، ولا حاجز يتجبر داخلك كذنب كبير يأسرك في دوامة اللائمين، فتظل راضيًا، مرضيًا، ترفع يديك بالدعاء وتستجير، فيهتك يقينك ستر الريب، وتأخذك رُوحك إلى حيث يسكن الأنبياء في السموات، فسماء لعلمٍ هو لك، وسماء لشفاءٍ هو لك، وسماء لبرهانٍ هو لك، وسماء معرفة هي لك، وسماء لحكمة أتتك، وسماء للنجاة منك، وسماء أخيرة هي أنا وأنت، فزد من أمانيك أمنية بها تشتاق، فليس "للعارف" سوى فؤاد واحد يجلس به مع الله حينما تنفض من حوله المجالس، حيث لا وجود لغبار تركته أمم خلفها، ولا وجود لكلمات تصرفك عن تمام الكلام، ولا وجود لأسرار سوى سر بينك وبين صاحب السر الكبير، فتمنّ ..وتمنّ.. وتمنّ، وانسج من أمانيك عشقًا ..ترتفع، فأنت عالم فسيح يَسبح في عالم أكبر من فوقه عوالم أكبر، يرى، فيرى ما لا يرى، ويسمع من داخله ما لا يسمعه إلا هو، فيهيم في الوجود يبحث عن اللاشيء، ويرتجي نظرة منه، وعفوًا، ورحمة ومغفرة.

في الداخل جلس "عارف" في مقعده وسط التلاميذ يُصغي إلى مُعلم الرياضيات، الذي أخذ يُفسر لهم ماهية الأعداد:

فالصفر لا يعني شيئًا إلا إذا جاء مُعرفًا معروفًا بغيره..

والواحد أحدٌ لا شريك له، ويعني كل شيء كان ولم يكن في السماء وفي الأرض،

أما الإثنان فركوع لتمام،

والثلاثة قيام لصاحب المقام،

والأربعة انحناءٌ قبل وصال،

والخمسة حيرةٌ وبحثٌ ودوران،

والستة أثقلتها معصيةٌ وأعماها النسيان،

والسبعة ترفع كفيها للسماء ترتجي عتقًا وغفران،

والثمانية سجدة، فخشوع، فنور، وبيان،

والتسعة تعلُّق، ووَجْد، ووَصْل، ومنال،

والعشرة عبد خاشع أمام الحق الذي يعطي لكل ذي حق حقه بالقسطاس والميزان،

استدار "المُعلم" حينما انتهى من تفسيره، وأخذ يرسم بالطبشور بعض الدوائر، والمثلثات، والمربعات، والخطوط المتوازية، والمتقاطعة، والمتعرجة، والمستقيمة، وبعضًا من الأشكال المخروطية، والمنحرفة،

وبينما هو كذلك قاطعه "عارف" ورفع يده ليسأل عن بعض أشياء لم يستوعبها بعد، فصمت المُعلم للحظات، وحدّق في وجهه باندهاش، سرعان ما تحول إلى غضب شديد، فهو المُلقِّن الذي لا يتلقى سؤالاً قط، وهو المُعلم الذي لا يسأله "عارف" قط، ولا يُنتظر منه جواب قط، هو فقط يعطي، ويعطي ولا يُؤخذ منه، أو له، أو عليه، فمد يده وراح يمحو كل ما رسمه على اللوح الأسود، ثم أشار "للعارف" إلى باب آخر للدخول، فسار "العارف" صوبه ببطء شديد، وما إن وصل إليه صار جدارًا مصمتًا من الحجار، فكم من باب في ظاهره حائل، وكم من حائل في ظاهره باب، فادعُ الله دائمًا كي يُفتح لك ما تعجز عن فتحه المفاتيح، أمسك "العارف" بالتميمة التي علقها الشيخ في عنقه مشدوهًا، وعاد يجلس في مقعد الدرس صامتًا، متأملاً، فارتفع صوت المُعلم شارحًا، ومفسرًا، ثم عاد يرسم بالطبشور دائرة كبيرة داخلها الكثير من الدوائر الصغيرة، ثم أتبعها بدائرة أصغر، فأصغر، فأصغر حتى انتهى بوضع نقطة واحدة في المنتصف، فصارت نواة دارت حولها كل الدوائر تباعًا، دارت، دارت، ارتفعت، ارتفعت، تعلق بها "المُعلم" ومن خلفه التلاميذ، طافوا حولها، رقصوا معًا، صعدوا إلى السماء، بينما ظل صوت "المُعلم" يدوي في أنحاء الأرض:

" –العارف" يُسأل ولا يسأل قط.

- "العارف" يجيب دائمًا ولا ينتظر الإجابات.

طوت السماء المُعلم والتلاميذ وعاد سقف الغرفة الحجري كما كان، وبقي "العارف "يجلس في مقعده وحيدًا في منتصف بقعة الضوء التي سقطت وسط الغرفة من دون منبع، أو مصدر، بينما أخذ الفتى يلتفت يمينًا ويسارًا ليبحث عن مخرج له لكنه تعثر بأربعة جدران صلبة بلا منافذ، أو مخارج، فاستسلم تمامًا لقدره المحتوم مسندًا رأسه للخلف في انتظار فرج الله.

مر يوم، أو يومان، أسبوع، أو أسبوعان، مر العام، أو العامان، مرت ساعة، أو دقيقة، أو ثانية واحدة، فالوقت داخل المغاليق لا قيمة له، بل الرُوح الطيبة هي القيمة الكبرى التي يمكن أن نعثر عليها في غياهب الجُب، فاستعان "العارف" على وقته المقتول بالصبر، والصلاة، والذكر.

– ففي صمتك آية للعالمين بها يُذكر صوتك في السماء، فيأتي دعاؤك من الظلمات فيه عتق، ونجاة.

كان "الوشم" يملأ عليه المكان، على كفيه، وعلى الجدران، على

صدره، وعلى السقف الذي عادت ثقوبه لتبث النور، فانفرجت أساريره حينما أيقن أنها البشارة، فزاد من دعائه، وصلاته، وتسبيحه، وبكائه، سقطت دموعه تشق الأرض شقًا، فتصدعت الجدران واهتزت، فاستغرق في سجوده حتى انفطر الوقت وانهار، حمل الفتى قلبه بين كفيه داعيًا:

"أنا الإنسان الذي اصطفيته منتصب القامة ليضاهي الجبال، والأنهار، والأشجار، والعيدان الطيبة، لكنني غفلت عن ذكرك، فمنحتني العفو عن النسيان، فاجعلني كحجر لا ينقطع عن التسبيح باسمك الأعظم، واجعلني كجذع نخلة يبكي لفراق كلماتك، وهب لي دعوة امرأة فقيرة بدلّت قدرًا أحرج سليمان، واجعلني دائمًا في حمى حماك، سبحانك ربي سبحانك إني كنت من الظالمين".

هدأ الحجر، واعتدل الوقت، وأقلعت العينان، واختفى الوشم تمامًا، بينما عاد "المُعلم" يرسم بابًا على سقف الغرفة بالطبشور، وهو يشير لـ" عارف" بعصاه أن أعبر من هنا باسم الله الرحمن الرحيم، انفجر النور من صدره يشق الجدار، فحمل الفتى تميمته وارتفع إلى حيث قُدِّر له.

في الصباح كان الشارع خاليًا تمامًا إلا من بعض الدراويش الذين يمسكون بعصيهم، ويجوبون الأزقة الضيقة ذهابًا، وإيابًا، وهم يحملون سلال البخور المشتعل، مطأطئي الرؤوس، بينما تعلو أصواتهم بطلاسم السمو التي لا يُقدّر معناها إلا من كان له نصيب في عالم الأفهام، وقف "العارف" يتأملهم للحظات بينما لم يعبئُوا بوجوده، فشعر أن هناك خيطًا رفيعًا شده أحدهم ليربط قلوبهم بقلبه، لذلك فهو ليس بغريب ليلتفتوا إليه، أو يهتموا بمطالعة تفاصيله، فقرر أن ينصرف عنهم في هدوء؛ ليلحق بركب المصلين في مسجد الإمام الذين جاءوا من الأمصار، والمدن، والقرى والنجوع؛ لتلقي النفحات الصباحية التي يرسلها المحبون كل يوم، فلا يد لمريد تمتد إلا لمريد، ولا عين ترتفع لمريد إلا لمريد مثله، فالكل فقراء في حضرة صاحب المقام، والكل أغنياء بالرزق الذي يهبه الله لمن يشاء.

خطا "العارف" بخطواته الوجلة إلى الداخل حتى قادته قدماه إلى المحراب، فصلى ركعتين حيث توقف، وبينما انتهى من التشهد الأخير، شعر بيد تربت على كتفه، وتمتد إليه برغيف خبز، وبعض الغموس المنثور أعلاه بشكل عشوائي، فقبله على استحياء، فهنا لا يد تُرد، ولا وهبة يُستكبر عليها، فاليوم يأخذ، وغدًا حتمًا سيعطي

من دون طلب، طوى "العارف" رغيفه واستقبل منه ما يسد به جوعه الأول، بينما انصرف الرجل ليمنح غيره مما أتاه الله، فأسند ظهره للمحراب، وتلقى قضمته الثانية وما إن انتهى من طعامه، عاد إليه الرجل بماء الورد ليسقيه، فشرب حتى ابتلت عروقه، وما إن انتهى من شرابه، تحدث إليه الرجل بصوت خفيض وهو يشير بسبابته صوب الباب، باب المقام:

-هناك ستعثر على حب فقدته.

-لم أحظَ بأي حب في حياتي كي أفقده.

-ألا يكفيك أننا جميعًا نحبك؟

-ومن أنتم إذًا؟!

- "العارف" يُسأل ولا يسأل.. تذكر ذلك جيدًا.

- لكنني يجب أن أفهم.

-اذهب إلى هناك وستعقل بقلبك كل شيء.

تقدم "العارف" إلى المقام، فبدا وكأنه يسابق الريح بخطواته الوجلة، لكن لا مستغرب في عقر دار الكرامات، فالبساط لا عجب إن حملته

الريح، والقلوب لا عجب إن سمعت لها أنينًا في الصدور، والأكف لا عجب أن رأيتها تطال النور، النور، النور، ثم النور، والعيون الخاشعات، الباكيات، لا عجب إن لم تمسها النار، فهنا يكمن الدر، والجوهر، والعطر المعتق بعترة المريدين، فوصال ليس بعده فراق لمن يذوق حلاوة العشاق الذاكرين، الحامدين، المهللين، المكبرين، المسبحين، العاكفين على جداول السماء، ينهلون منها عسلاً، ولبنًا، وزهـرًا، ومطرًا، وأنهارًا، أشار أحدهم إلى "العارف" وبلهفة قال:

-ها هو قد جاء أول المارين من هنا.

فخرج "عمران" يتكىء على عصاه مبتسمًا وكانت غصنًا طريًا لينًا من شجر "العوسج"، دار حوله ببطء شديد، ثم تفحص وجهه للحظات، وخاطبه قائلاً:

- لقد اصطفيناك لتكون شاهدًا وبرهانًا، اهبط البئر وابحث عن رأس الإمام فإن وجدتها فآتنا منها بقبس وعلامة، وأحكم حفظها في مزقة الحرير، وانثر عليها من المسك واكتم سرًا شاء الله أن يظل مكنونًا.

لم يعِ الفتى المقام الذي آل إليه، فمن يكون هو حتى تتهادى الأمنيات الكبيرات من فوقه دون أن يحسب لها حساب؟ ومن يكون هو ليكون شاهدًا على وجود رأس الإمام من عدمه؟ فما زال الفتى يشعر بأنه

أصغر بكثير من أن يصبح نبيًا، أو تقيًا، أو ملاكًا، لكنه يستسلم لقدره على أي حال، وبينما هو هذا الحال، يطرح الأسئلة على نفسه، ويفكر، ويضع التبريرات ليسد بها تلك الثغور التي تنبثق في رأسه بين الحين والحين، طوقوا خصره بحبل معقود من الكتان ينتهي طرفه بيد كبيرهم الذي أعطاه مزقة حرير خضراء، وزجاجة مسك، وبعض الماء.

أغمض "العارف" عينيه حينما أسند الشيخ كفه على رأسه، وأخذ يتمتم بكلمات ختمها بآيات من سورة "الفتح"، ثم شرعهما حينما قبض الشيخ على التميمة التي تتدلى من عنقه وهو يصيح بأعلى صوته: (يا الله) فارتعشت قلوب المريدين ورددوها من خلفه مرات ومرات، نظر "العارف" إلى البئر الحجري والعمق السحيق في الظلام، لم يشعر بخوف، أو اطمئنان، بل كان الشعور ثالث لا اسم له، أرخى الشيخ طرف الحبل المعقود ببطء شديد فتدلى الفتى وهو يقرأ باسم الله، لم يكن الظلام يؤرقه أبدًا، فالظلام الذي ينتهي بالنور كدفء الفراش الذي يختفي مع بزوغ الشمس، حتى أنه كلما هبط ذراعًا انحلت عقدة تقربه من القنديل المُضاء في القاع، كانت التميمة تفتح له آفاقًا رحبة فشعر أنه يشق رتق السماء لا الأرض، فبدا وكأنه يصعد إلى المنتهى ولا يهبط إلى القاع، فترك جسده الضئيل ينساب ليستمتع بمن يحمله

على جناحيه كفراشة برية تحط به برفق على الرحيق.

دنا "العارف" من القنديل المثبت على الجدار بعد أن وطأت قدماه الأرض، نزعه من مكانه، استأذن في الدخول، وطاف في البرزخ، مرات ومرات، ظل يدور كراقص ملتاع تجذبه النجوم، وتشده خيوط كل شيء؛ الزمن، العدم، الحياة، الموت، الخير، الشر، الحكايات، والطرق المتقاطعة، انصهر القنديل بين يديه لكن الضوء ظل يشع في المكان يطرد الظل والظلام، ويصرف الأرواح الحارسة، فانكشف الستر، وتفتحت الحُجب، وظهر الصندوق في منتصف بؤرة الدوران، كان الصندوق يبزغ من الأرض شيئًا فشيئًا كحبة تتفتق بالحياة بعد أن طالها البلل حتى استقر على السطح أو أنه كان مستقرًا، ففاحت رائحة طيبة تلتها أصوات لخيول، وصليل سيوف، وصراخ، وعويل، فنحيب، ثم صمت، صمت، مر الصوت وانتهى، لكن الرائحة لم تنقطع، بينما لم يتردد "العارف" فتقدم، تقدم، حتى جثا على ركبتيه أمام المقام، أزاح الغطاء برفق، بل ببطء، ببطء شديد، ثم مد يده يلتقط الكيس الحريري، وأخذ في فض الوثاق، ففاحت رائحة المسك، والعود، والعنبر، والفل، والياسمين، والزعفران، فانتعش الفتى، وارتعش، لكنه لم يسقط أبدًا، طالت أصابعه رأس الإمام التي مازالت تقطر دمًا،

نظر إلى العينين، والكحل المُسال على المُقل، واللحية البيضاء بياض قلوب الطيبين، والسَمات في الوجه، والقسمات تُخطر كل عين بسحر الأولياء، فطوى "العارف" ما رأى فلم يستطع أن يقاوم الجمال، وخر ساجدًا وابتسم، ثم بكى.

أعاد الفتى الرأس كما كان بعد أن جدد له كسوته الحرير، ونثر المسك، والماء، وطيّب الأركان، ثم ملأ رئتيه من الهواء المبارك، وهزّ الحبل مرتين ليجذبه الشيخ ويخرج عليهم بقبس من دم الصدق لتكون شاهدًا، وبرهانًا، لكن الحبل بقي ثابتًا لا يتحرك، هزه مرة تلو المرة، لكن الحبل بقي ثابتًا لا يتحرك، جذبه نحوه، طواه، لملمه، لكن الحبل بقي ثابتًا لا يتحرك، فأيقن أن المخرج غير المخرج، وأن الأمر كله لله..

جلس "العارف" بعدما أنهكه التعب، وصار العَرق يشق الجلد كما تشق الدماء العِرق، ردّ ظهره للجدار اليماني، وأسلم رأسه لركبتيه، ثم غطّ في نوم عميق، وذهب إلى هناك إلى طاقة النور التي انبثقت في صحراء "كربلاء"، حيث غبار المعركة التي اختلط فيها العطر بالدماء، والأجساد بالأجساد، فالبيعة الفاسدة أعرض عنها الإمام، فالخلافة لا تُطلب، ولا تُؤخذ عنوة، لكن "يزيد" قد أعماه بريق الولاية،

وأذهب عقله الخمر، وتعلق بشعرة أبيه، فتجرأ على الرُوح التي ستتسيَّد شباب أهل الجنة، الـرُوح التي عانقها رسول الله، وامتزجت بريقه، وامتطت ظهره، فأطال من أجلها السجود رأفة بنا، الرُوح التي صعدت فشهدت على فساد الأرض، والقلوب، فاُجتزت الرأس.

اُجتز الحق من قلب الدنيا ___يا ويلنا___ كان صراخ النادمين، العائدين، التائبين من الذنب العظيم، ___ياويلنا ___شقت قلب الحجار، والمآقي، والدفاتر، والتاريخ، وأسالت أحبار الكلام، فارتعدت السماء، وبرقت، ولم يهم المطر لتظل أرض "كربلاء" عامرة بشواهد الشهداء التي مزقت أجسادهم الخيول، فباركت الثرى، وألانت الجبال، وطيبت الهواء والأنفاس، أسرعت "زينب" تدفن الرأس في صدرها، فدُفنت رأس الحق في كل بقاع الأرض، في العراق، في دمشق، في المدينة، في عسقلان، في القدس، في مصر، وفي كل مكان، فالرأس فكرة لن تموت، بل ستظل بذرة طاهرة تُنبت أشجارًا خضراء تقيم ثمارها العدل، وتعلي الميزان.

استيقظ "العارف" من نومه يجفف دموعه بعد أن أيقن أنهم ما قتلوه، ولا نكلوا به، ولا جزوا رأسه، ولا دهسوا جسده، ولكن شُبه لهم، فأولياء الله في حِماه، يرفعهم إلى مقام في السماء، ويكتب لهم مقامات في

الأرض، يقصدها المريدون من كل فج عميق، بأجسادهم، وقلوبهم، وأرواحهم، وأوصالهم، وبأفكارهم، وظنونهم، وأحلامهم، ويبقى صاحب المقام يستمع إلى أمنيات السائلين ويبتسم، فليس لأماني العباد وسيطًا من دون الله.

تلاشى ستار الدموع من عيني "العارف" وزالت غشاوة النوم، فبان الشيخ أمامه بكامل تفاصيله، جلباب أبيض، عباءة خضراء، وشال على الرأس بلون الشهد، لقد كان وشم "عمران" رفيقه في كل مكان، يقف له كقلب أمه على المخارج، والمداخل، وعلى الأسطح، والقيعان، فأدرك أنه من أطعمه في المحراب، وأدرك أنه من ربَّت على كتفه وأرشده إلى المقام، وأدرك أنه من لفّ الحبل حول خصره ليكون شاهدًا على الحق، فنهض الفتى من مقعده، وبسط له يده كي يتلقفه، ويرتاح من رحلته المرهقة، فقبض "عمران" على كفه مبتسمًا، ثم تحدث إليه بصوت هادىء ينبع من السماء:

"في رحلتك المقطوعة أشياء ممنوعة ستفرح بالفوز بها حتمًا، فلا تبتئس لفراق ينتهي بلقاء كل شيء، فكل المحبين ينتظرونك هناك خلف الباب، فطب رُوحًا ليُفتح لك، وتلحق بهم، في عالم فيه أنت ..أنت لا يمثلك جسد فانٍ، ولا صوت ليس لك، ولا أنفاس ترتجيها

لتقاوم موتًا ليس بموت، فكل ما أتاك في الدنيا ليس هو ما تنتظره حتمًا، بل هو ما يجب أن تتركه وتبرأ منه؛ لأن برفقته زوال لا يليق بك، فأنت "العارف" الذي تعلم الأسماء كلها، وأنت العائد الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، وأنت المعصوم الخطاء الذي مُنح مفتاحًا به يُرحم، فبأحرف تامات ترددها بقلبك يُفتحُ لك بابًا ظنه القانطون أبدًا لن يُفتحَ، وببضع كلمات بها تتوب عن ذنوب فاض بها البحر فصارت لممًا، فتردُ منزهًا عن كل معصية كثوب يضيء من البياض."

أطرق "العارف" برأسه بعد أن اطمأن قلبه، ثم عاد يهز الحبل مرتين، فجُذب لأعلى، حتى لفظه البئر، لكنه حينما خرج لم يجد أثرًا لأحد من المترقبين، المتلهفين، المتشوقين، اختفوا جميعًا، وبقي هو يكتم الشهادة داخله لا يفصح بها.

غادر "العارف" مسجد الإمام بعدما أيقن أنه ما جاء إلى هنا إلا ليخرج محملاً باليقين، فحينما عجز عن تخيل وجه أمه بعدما أخبروه أن صورها قد التهما حريق شب في الدار، تملكه شك كبير أن الله لم يخلقها من الأساس، وأنه ابن لقيط نبت من خشاش الأرض، لكن حينما زارته أمه في المنام ورأى وجهها للمرة الأولى شعر بشيء يملأ كيانه كله من رأسه حتى أخمص قدميه، شعر بأنه لم يعد نقطة من

هلام لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، شعر بأنه يجب أن يعيش من أجل أمنية كبيرة تجعل له جذورًا ثابتة في جوف الأرض، وفروعًا في السماء، لكن ظل يحلو له وجه أبيه الذي لم يتمنَ رؤية ملامحه قط لا في صورة، ولا في حلم، ولا في واقع، ولا في خيال، وذلك لأنه بات يعلم جيدًا بأنه سيراه يقينًا يومًا ما، كما رأى رأس الإمام من دون موعد أو أمنية.

وقف الفتى في باحة المسجد ينظر إلى السماء الملبدة بالغيوم، ويتنفس الصُّعداء، ويدور، يدور، يدور، حتى أصاب وجهه المطر، فالتفت الدروايش من حوله في حلقات متتابعة، يطوحون رؤوسهم في الهواء، ويذكرون الله، الله ..الله ..الله.. تصاعد البخور، واحتدم العطر، وارتفعت قطرات من النور تملأ الدنيا بالنور، فحلقت من فوقهم الحمامات ابتهاجًا بالزائر الجديد إلى عالم العارفين، ضاقت الحلقات، والتحمت، توحدت في حلقة واحدة، اتسعت، اتسعت، انفرجت، انفرجت، ضاقت، ضاقت، اجتمعت، اجتمعت في بؤرة واحدة، ذابت .. ذابت.. واختفت.. اختفوا جميعًا.

الله ..الله.. الله

الله ..الله ..الله

لا إله إلا الله

٣- الأسماء كلها

كانت "أسماء" تتربع في مقعدها المخملي عند صدر المنزل حينما تفاجأ "العارف" بوجودها وقت عودته من رحلته الطويلة التي قضاها بين ليل وإشـراق، لـم يكن غيابها يمثل لـه علامة كبرى تستوجب التفسير، أو الإيضاح فما عاشه خلال السويعات الماضية أقوى بكثير من أي تفكير، أو سؤال قد يتلقى بعده إجابة لا يرضاها، لذلك لم يسأل عن حضور، أو ظهور، أو غياب لا يخصه، فقط ألقى عليها السلام واتجه إلى السلم الخشبي ليصعد إلى غرفته في الدور العلوي، لكنها أوقفته بنداء قصدت به استدعائه، فتراجع إلى الخلف خطوات قليلة حتى أصبح في مواجهتها تمامًا، رفعت رأسها لأعلى ثم سألته عن الرسالة التي حملها إليها لتفسرها يومًا ما، فأشار إلى التميمة التي تتدلى من عنقه دون أن ينطق بكلمة واحدة، نظرت إليها غير مستغربة، ثم أومأت برأسها لأعلى ولأسفل مرات عدة دون أن تُعلق بكلمة واحدة

أيضًا، فوقف "العارف" يتأمل وجهها الأسمر للحظات ثم عاد ليكمل طريقه إلى الأعلى، فسمع صوتها يأتيه حينما بلغ الدرجة الأخيرة:

- حينما تتعلم الأسماء كلها ستعلم أن للرسائل أحرفًا تُؤثر ولا تُفسر.

تلقى "العارف" هذه الكلمات، ثم دلف إلى غرفته فتفاجأ بأن فراشه مازال يحتفظ بدفء جسده، وكأن رحلته الطويلة لم تستغرق سوى أقل من دقيقة، أو أن هناك من كان يرقد في فراشه وغادره للتو، هو لم يركن بعد إلى احتمال قاطع لكن رائحة المسك التي انتقلت إلى الفراش والتي جلبها معه من مقام الإمام أكدت له أن الدفء يخصه هو، لكنه لم يتوقف على تلك الملاحظة كثيرًا، فهو على يقين تام أنه كقارب بلا مجاديف كُتب له أن يسبح مع تيار النهر ولا يقاوم العثرات، لأنه يعلم بأنه مهما هبط إلى القاع فسوف يطفو على السطح في اللحظة المناسبة، هو فقط يطلق العنان للأمنيات الكبار، ولا يحاول أبدًا أن يخرج من تلك البوتقة التي يمتزج فيها بكل الأسماء التي يعلمها ولا يعلمها.

وطأت "أسماء" الأرض الخشبية للغرفة محدثة صوتًا وكأنه استئذان مقنع بالدخول، حتى وإن لم يسمح لها "العارف" بذلك فهي أدرى منه بحاله لذلك هي تتصرف كدفقات الهواء التي تتسلل مُرَّحبًا بها في أي

مكان وزمان، فرحب بها "العارف" دون أن يبرح فراشه، أو ينتصب جسده، بل ظل مستلقيًا دون أن تصدر عنه حركة واحدة، فتوجهت "أسماء" إلى النافذة وفتحتها عن آخرها ثم تحدثت إليه بلهجة يشوبها دلال:

- أنا من رتبت لك غرفتك من جلبتها.

حدق الفتى في وجهها مليًا، وبعد بحث طويل لم يعثر على ما يقوله، فعادت تتحدث إليه باللهجة نفسها:

- إياك أن تغلق النافذة فمنها يتسلل الضوء، والصوت.

غادرت الفتاة الغرفة وقد تَعلق بصرها بملامح وجهه التي أصابها ذبول نبيل، فنهض "العارف" من فراشه ليطل من النافذة فربما يتلقى منها أمنية جديدة تُحدث له أمرًا، نظر الفتى يمينًا إلى بيت القاضي ويسارًا إلى مقعد الأمير ماماي فلم يجد أثرًا لأي شيء في الباحة الحجرية القديمة سوى لورقتين صفراوتين يدفعهما الهواء، فهز رأسه غير آسفٍ على ما قالته الفتاة، فربما أمنيته المنتظرة ما تزال قابعة في رحم الأقدار، فوقف يتأمل الورقتين حتى شعر بملل فلا جديد يثيره، أو يلفت انتباهه، لكنه قبل أن يهم بالعودة إلى فراشه أتاه الصوت، صوت متهدج لا يعلم مصدره بدا بعيدًا، لكنه كان يقترب شيئًا فشيئًا، فركن

إليه حتى صار أكثر وضوحًا:

- اعلم يا فتى أنه حينما خرق الخضر السفينة لم يبرح مكانه وإلا ألقاه ربانها في البحر، لكنه قرأ عليها اسمًا تعلّمه فنزع لوحها بإذن الله، واعلم يا فتى أن الخضر حينما قتل الغلام لم يذبحه بيديه وإلا فتك به أهله، لكنه قرأ عليه اسمًا تعلمه فقتله بإذن الله، واعلم يا فتى أنه لو أقام الجدار بيديه لانهار وانكسر، لكنه قرأ عليه اسمًا تعلمه فأقامه، فاصبر يا فتى حتى يأتيك علم من الكتاب به تحقق كل الأمنيات الكبار.

صمت الصوت لكنه لم ينتهِ، بينما هبط الطائر يحمل الورقتين الصفراوتين بمنقاره وغاب في السماء، تسمر "العارف" في مكانه غير مذهولٍ، لكن غمره شعور بالرضا طغى على أي تفكير دخيل قد يتسلل إليه ليفسد عليه اللحظة.

هدأت مهاج الفتى وحطت الدماء في شرايينه، فتفتح قلبه كما زهرة برية يخرج منها رجل يسبح باسم الله الأعظم، لم يكن الفتى يشعر من قبل بهذا الدفء الذي ضمه إليه كصدر أمه التي لم يذكر منها سوى أخيلة، وصوت بعيد اختلط بتأوهات المخاض، فذاكرته الصغيرة لم تغادر رحمها، حتى الحلاوة التي دفعتها إلى قلبه قبل أن تتشابك

عظامه لازال أثرها في جوفه لا تبرحه، فرأفت السماء بحاله، ورق السحاب، وهطل المطر يسقي حجار الأرض علها تلين تحت قدميه، وتأتي المسافات طوعًا إليه، فمدّ الفتى يديه للمطر ليغسل أثرًا قديمًا لا يفارقه، فاغتسل، وارتدت يديه بيضاء من غير سوء.

لم تكن "بلقيس" تعلم أن الهدهد سيهديها إلى مقام كبير تجمع من أجله الملأ لتستفتيهم فيما قدّره الله، كما أنها لم تكن تعلم أن عرشها العظيم سيعود إلى "سليمان" قبل أن يرتد إليه طرفه، لكنه علم الكتاب الذي عجزت أمامه خوارق الجان، فكان لابن آدم الغلبة بإذن الله، فسُخّرت له الأرض بمن عليها ليكون الخليفة، فجهل علمًا به كان بين كاف ونون، فعم الفساد في البر والبحر، لكن ظل "العارف" يرتقي يلتقط بذار الخير، لينجو بها كما نجا "نوح" بالأزواج... هكذا عاد الصوت، ثم ارتد، ثم عاد..

هبط "العارف" إلى بهو المنزل يبحث عنها ___عن "أسماء"___ بينما سكنه يقين أنه لن يعثر عليها، لكنه عثر عليها وخذله يقينه، فليس كل حديث للنفس يقين، فالنفس خليط، أما الرُوح فنقاء يعلوه نقاء، وبالأسماء وحدها تصدقك الحواس، وتتحقق الأمنيات، فـ"أسماء" كانت تتربع في مقعدها تمرر الخيط في حبات المسبحة، وتحتسي

القهوة في فنجان بدائي الصنع، وتتحسس صفحات كتاب قديم محاطٍ بغلاف من الجلد المدبوغ، أخفت عنوانه بأصابعها سريعًا حينما شعرت به يقترب، ابتسمت له ابتسامة آسرة، أسدلت الكتاب ثم أبدت اهتمامًا لوجوده، تساءلت وكأنها تفتح حوارًا:

- هل أعدت الجلبة إلى الغرفة؟

- عشت حياتًا مليئة بالفوضى.

- ستنتهي الفوضى من حياتك حتمًا يومًا ما.

سكن "العارف" للحظات قبل أن يعود مرة أخرى لأجواء الحوار، ثم وجه إليها سؤالاً اعتبرته الفتاة مباغتًا:

- ما هي أقصى أحلامك من هذه الحياة؟

صمتت الفتاة، ابتسمت، ضحكت، شردت بعيدًا ثم تحدثت:

- أحلامي تكمن في كلمة تصعد إلى السماء تحتفي بها الملائكة.

- وماذا تكون هذه الكلمة يا تُرى؟

- هي كلمة بيني وبين الله لا يجب أن يطلع عليها ثالث.

شعر "العارف" بحرج شديد لشعوره بالتطفل عليها، حاول أن يجفف

عرفه براحته اليمنى، ثم استأذن في الإنصراف، فأومأت له بذلك، وعادت تنشر الكتاب القديم أمام وجهها، لكن قبل أن يبادر في الاختفاء تمامًا خارج المنزل باغتته بالنداء، فالتفت إليها وانتظر حتى تتكلم، فقالت له بصوت هادىء:

- لا تلتفت إلى من يناديك دائمًا فربما الصوت يأتيك من السماء.

تلقى "العارف" هذه الكلمات مبتسمًا، ثم انصرف إلى حال سبيله، مستجيبًا لرغبة تدفعه إلى البحث عن شيء لا يعلمه، لكنه يشعره يتسلل إلى قلبه رويدًا.. رويدًا، فهو مازال يحتاج إلى إجابات قاطعة على كل ما يحدث لكنه يهاب السؤال، بل يخشى أن يسأل فيُطرد من هذه الرحمة التي تتلقفه، وتلفه كثوب من حرير، لذلك هو يسير كعابر سبيل لا يأبه بالأشخاص، أو بالأحداث، أو بالأماكن التي تقفز من حين لآخر على جسر يصل بين الواقع والخيال.

جوار جدار قديم في شارع مجهول، يتوسطه شباك خشبي متهالك جلس "العارف" ليستريح قليلاً ويلتقط أنفاسه، فأتاه درويش يسأله عن سبيل ماء، فلم يجب "العارف"، فـ"العارف" لا يجيب أبدًا على سؤال لا يعرفه، لكنه دائمًا ينتظر رسائل الله التي تأتيه بالإجابات القاطعة، أخبره الدرويش إنه يشعر بظمأ شديد، أخبره إنه يتألم، فرق قلبه،

وأدمعت عيناه، ثم بكى، فمد الدرويش يديه يستقبل دموعه حتى ملأ كفيه، فشرب حتى ارتوى، فنهض "العارف" من مكانه وأراد أن ينفجر عن صمته ويسأل، لكن الدرويش تشبث بيده وجذبه بشدة ليجلس مرة أخرى جوار الجدار قائلاً:

- "العارف" يُسأل ولا يسأل.

فلما هدأ الفتى، واطمأن قلبه، تملكه الجوع والعطش، فمدّ الدرويش يده اليمنى إلى داخل الشباك الخشبي المتهالك الذي يتوسط الجدار، وأخرجها بمائدة صغيرة من الطعام والشراب، فلم يسأله الفتى أنّى لكَ هذا؟ لأنه يعلم جيدًا أن هذا الفعل المذهل هو نفسه إجابة لأسئلة محيرة طرحها على نفسه من قبل، فظل الدرويش يُطعمه ويُسقيه بيديه فلما شبع، وارتوى، حدق "العارف" في تقاسيم وجهه المجعدة، وعانقه بشدة، فقبض الدرويش على التميمة التي تتدلى من عنقه وانتفض من مكانه صائحًا:

- اللّه.. مدد يا أم العواجز مدد.

مضى "الدرويش" في طريقه يصيح بتلك الكلمات حتى اختفى في الزحام، فأيقن الفتى أن هناك اسمًا يعلمه هذا الرجل به أطعمه

وأسقاه، لكنه لم يظمأ ولم يجع، ولم يكن يبحث عن سبيل ماء قط، بل جاء ليأخذ منه ألمًا به يعلّمه اسمًا يجهله.

انعكس خيال على الجدار لشجرة يجلس تحتها أربعة شبان، أحدهم تمنى أن يكون الخليفة، وطلب من فتيته أن يتمنوا عليه، فتمنى الأول أن يكون وزيرًا، وتمنى الثاني أن يكون تاجرًا كبيرًا، ولكن قبل أن يهم الثالث بسرد أمنيته اختفى الظل بحلول الظلام، لكن "العارف" لم يكن مشتافًا لسماعها لأن من سبقوه لم يتمنوا قط، فكل ما أرادوه ترابًا، لذلك انصرف بعيدًا دون أن يشغل باله بما رآه، لكن طائر النافذة ظل يحلق فوق رأسه لا يفارقه، فعلم "العارف" بأن هناك رسالة قريبة ستأتيه، فسار الفتى هائمًا لا يعرف إلى أين يذهب، فالطرق أمامه متشعبة، زقاق يحتضن زقاقًا، وشارع يطعن شارعًا، ممرات، وطرقات، أسواق للذهب، وأسواق للتراب، محال للطعام، ومحال للحجار، نور يروح ونور يأتي، زحام، وأُنس فهدوء ووحشة وظلام، والطائر لا يهدأ ولا يستقر، يجذب "العارف" كما يجذب الهائمين الوَجْدُ، فظل الفتى يركض خلفه، يقفز، يبحث، يتقاطع، يتداخل، يستقيم، لكنه لا يتوقف، بل يعلو، يعلو ويحلق، فالرُوح تحلق، وتحلق، فإذا ارتفعت سجدت، وإذا هبطت سُجنت، وإذا نُثرت اندثرت، وإن مالت ملّت، وإن اشتاقت رانت،

وإن تلهفت برقت، وإن أحبت استكانت، وإن كرهت سقطت، وإن أُصيبت زهدت، وإن صعدت نجت، وإن بقيت فنيت، أما الجسد فيترسب في قاع الأرض ليصبح عنصرًا وحيدًا في صلب التكوين.

انخفض الطائر، اقترب من رؤوس الناس، ثم اندفع فجأة إلى محل عطار يمزج ثلاثة أعشاب ليصنع دواءً لمرض عضال لن يسلم منه إنسان قط، لم يجد "العارف" مبررًا لوجوده في هذا المكان حينما شرح له "العطار" بالتفصيل مكونات الدواء الذي يصنعه بعدما قفز أمامه فجأة إلى داخل المحل لاهثًا خلف الطائر، بينما لم يتفاجأ العطار ولم يضطرب وكأنه يتوقع قدومه، أو أن هناك من نبهه لذلك، أشار لـ"العارف" سريعًا أن يناوله قنينة زيت الرمان، ثم أمره أن يناوله قنينة زيت القنب، والزيتون، والفول السوداني، والصويا، مزج الخليط بعشبة الفلفل الأحمر، والثوم، والكاكاو، ولما انتهى من صنيعه، كشف صدر "العارف" وطلاه بالدهن بأطراف أصابعه في حلقات دائرية متتابعة، فأضاءت التميمة التي تتدلى من عنقه، وتوهجت حتى غمر النور المحل القديم عن آخره، فتسربت إلى رُوح الفتى راحة غريبة من تعب لم يشعره من قبل، فأيقن أن ما صنعه العطار هو دواء يداوي القلوب من مرض يراه قد انتشر، ستر "العارف" صدره ببطء شديد،

وأراد أن يشكره، لكنه سبقه قائلاً:

- لا أمنيات تتحقق لقلوب سكنها مرض.

- لكن العصاة تتحقق أمانيهم أحيانًا .

- ربما تتحقق على الأرض لكنها لا تصعد إلى السماء.

أهدى "العطار" الدهن لـ "عارف" بعد أن صبه في قنينة من فخار، فمن الفخار يخرج الحلم الأول عاريًا، إلا من الحقيقة الأولى، فإن طابت الأرض طابت حقيقتك، وإن ساءت، ساءت، فقبضة التراب قدر لا يغيره سوى مقامات الجهاد، حتى يصل العبد إلى جهاد المحبة بعد أن يتخلص من كل أوجاع السوء التي علقت بتكوينه الأول حيث قُدر له الشقاء نقيض السعادة، فجرعة ماء، أو لقمة، أو كلمة من حرام، أو سهو، أو نسيان، أو جذر ضارب في قلب الشيطان، أنت منه براء إذا سلخت رُوحك بعيدًا عن منابت الأرض الفاسدة، وتعلقت بمواقع السماء، فتعلم كل اسم هو لك، فبكل اسم يأتيك ارتقاء تصعد به إلى مُقام ومستقر، أنهى "العطار" حديثه، ومدّ يده يصافح "العارف" بعد أن استقرت قنينة الفخار في راحته اليمنى ثم عاد يحدثه أو يوصيه:

- دواء القلوب لا يشفي مُعرضًا قط.

حمل "العارف" الدواء في يده، وخرج يبحث عن الطائر الذي سيرشده إلى الطريق، لكنه لم يجد له أثرًا، فقرر أن يعود إلى المنزل بمفرده، أن يغمض عينيه، ويدعو الله بدعاء "سليمان" الذي به تعلم اسمًا سخر له الرياح لتحمله إلى أي مكان يشاء، فالأسماء يهبها الله لأوليائه كما يهب الأمنيات، والرزق، ولكن هل صار "عارف حسين" عارفًا بالله حقًا؟ لقد عاش حياته إنسانًا عاديًا جدًا، يصلي كما تصلي الناس، ويصوم كما تصوم الناس، ويحفظ القليل من القرآن، ويرتكب الأخطاء الصغيرة ويتوب عنها كما تتوب الناس، لكنه لم يكن يومًا واعظًا كبيرًا، أو عالمًا يُشار إليه بالبنان، ولكنه لم يكره أبدًا، بل دائمًا ما يأتي إلى الله بقلبٍ صافٍ، فصفاه الله واصطفاه أن يعبر، وتفتح له الأبواب، ويشق الرتْق ليرى ما لا نراه، ويجتمع حوله كل من أتاهم الله من علمه ليعلموه اسمًا وحرفًا يُذكر به في السماء، فجاء "العطار" لينزع من صدره مضغة سوداء لم يسلم عبدٌ منها قط، وما سلم منها إلا من أقبل على الله بقلب سليم، فترك أمانيه الواهية، وأعرض عنها، وأسلم رُوحه لمن يُلقِ عليه السلام، فسلامًا على من جاء يحمل للناس دواءً يَسلمون به، ويُسلمون على أنفسهم تسليمًا كثيرًا، فتصعد أرواحهم راضية مرضية، لا شِيَةَ فيها، ولا نكران.

وقف "العارف" حائرًا يرفع صوته بالدعاء عسى أن يرفعه الله إلى حيث يشاء، فتح عينيه على مهل، فأبصر نفسه يقف عند مفترق الطرق لا يعلم من أي طريق يعبر، فحط الطائر يضرب بجناحه الأيمن قنينة الدواء، فسقطت أرضًا وتحطم الفخار وسال الدهن يتخذ طريقًا حتى أضاء، فأيقن "العارف" أنه طريق السلامة، فخطا بقدمه خطوته الأولى باسم الله فحمله النور حملاً، وفي طرفة عين صار الفتى أمام الدار يستقبله "الدرويش" ويفتح له الباب، فأما المائدة فكانت من السماء، وأما الدهن فمن مشكاة يُضاء، وإن لم تمسسه نار، فنور في الأرض، ونور في السماء والنور كله لله، هكذا كانت تتنَزَّل على الفتى التفاسير لتهدأ رُوحه وتتحمل عزائم الطريق، فالطريق ما هو إلا اختبار، وعليه الآن أن يختار أمانيه ويأتي ببرهان يصدق به، فيكتب عند الله صديقًا.

دلف "العارف" إلى المنزل فوقعت عينه على "أسماء" التي كانت ما تزال تجلس في مقعدها تتحسس صفحات كتابها بيديها، ولكنها لم تحاول هذه المرة أن تخفي عنوانه الذي نُحت بخط بارز في الجلد المدبوغ فقرأه الفتى بلهجة المتسائل وبصوت مسموع نطق به "العارف" ؟! لكنها أفسدت عليه المفاجأة حينما أخبرته بأنها قد قرأت رحلة النور والدواء التي خاضها وأنهتها للتو فسألها والفضول يقفز من عينيه:

- وماذا عن باقي فصول الكتاب؟

- وهل يسأل "العارف"؟

- وهل يقرأ الأعمى؟

- وهل يقف المبصر حائرًا عند مفترق الطرق؟

فبُهت "عارف حسين" ولم يعلق على سؤالها، واتجه صوب السلم ليرتقي درجاته ليصل إلى غرفته في الدور العلوي، نادته كثيرًا لكنه لم يلتفت هذه المرة، فلا يمكن لمؤمن أن يلتفت لنداء فتاة مرتين.

في الغرفة المستطيلة المرتبة، جلس "العارف" في فراشه يلملم الدفء الذي لم يفارقه حتى اعتاد على وجوده، بعدما انكشف له لغزٌ جديدٌ، فأخيرًا علم كيف تقرأ الفتاة أفكاره قبل أن يبوح بها، فهو الآن بات يعلم أن مصيره المحتوم يكمن بين دفتي هذا الكتاب القديم الذي كُتب قبل أن يُولد، بل قبل أن يتعارف أبواه أو يُولدا، لذلك هو الآن قد أمسى أكثر يقينًا بأن لكل شيء سببًا، فغض الطرف عن الأسباب، وتعلق بصاحب كل سبب يتبعه سبب، فارتفعت من قلبه تنهيدة عشق، حلّقت على أثرها أسراب الذاكرين تطلب من صاحب الأسباب من كل سبب سببًا، مدد "العارف" جسده في الفراش وغطّ في نوم عميق، فأوصدت الفتاة

النافذة، وغلّقت الأنوار، وطرحت الباب وغادرت في هدوء.

في الهزيع الأول من الليل لم يكن الشارع هادئًا أو خاليًا تمامًا كما ظن الغافلون، بل ظل يعج بالصوت، صوت الدراويش الذين تجمعوا للسجود واحدًا تلو الآخر في منتصف ساحة "بيت القاضي"، فأخذوا يمتزجون معًا في حلقة واحدة حتى بدت الحلقة للناظرين وكأنها جسمًا كرويًا ملتحمًا متعدد الألوان، لكن الصوت كان يتوحد، ويظهر، ويرتفع، وكأن الكتلة البشرية كلها قد صارت لقلب واحد، فاستدارت، وأضاءت شيئًا فشيئًا حتى باتت بدرًا يضيء فوق سواد الأرض، خفت الضوء، نزع الدرويش الأول نفسه من الداخل واتجه نحو زقاق جانبي ضيق، ثم تلاه الثاني إلى زقاق آخر، ثم جاء دور الثالث، والرابع، والخامس، انفضوا جميعًا؛ كلٌّ إلى الطريق الذي قُدّر له، وبقيت بقعة ضوء صغيرة تشع من الأرض، ظلت تتلاشى، وتتلاشى لكنها لم تنقطع، انتهى المشهد دون أن يعلم عنه أحد أو يشعر به إنس أو جان، هي أفعال تحدث في الأسحار ليست في حسبان الخلق لكنها عند الله حكمة كبيرة لا يعلمها سواه، ففوق كل عالمٍ عالِم، وفوق كل عالٍ مُعلم، وفوق كل مُعلمٍ من هو أعلم، فالعلم كما الإشراق، درجات تصعد فوق درجات، ولكن إن غابت درجةٌ صعدت أخرى حتى تحين لحظة الحضور الأخير من الغياب الأول.

فلا شيء يصمت في هذا الكون..

لا شيء يسكن تمامًا، فالموتى يتنفسون في قبورهم، وتُسبح أجسادهم باسم الله لتفنى في لبنة التكوين، حتى تصير عظامًا، وتُسبح العظام حتى تصير ترابًا، ويُسبح التراب حتى يصير صلصالاً، ويُسبح الصلصال حتى ينفخ فيه الله رُوحًا، فيستوي جسدًا حيًا من موت لا يزول بل يظل يدور، ويدور ككأس يتذوقه الناس جميعًا حتى تحين لحظة ينقطع فيها كل شيء، فالانقطاع، غير السكون، غير الصمت، غير الموت، الانقطاع هو العدم الذي سيقف الله وحده على ركامه في يوم قريب ينادي المتجبرين في الأرض، ينادي الملوك، وأصحاب العروش، والقصور، والجنان والبلاد، والعماد، ينادي الوحوش الضواري في الصحاري، والبحار، ينادي الجان، والهوام، والجبال، ينادي الملائكة في السماء، ينادي على ملك ينازعه، على صوت يجيب، فلا مجيب، فتلك هي اللحظة الوحيدة التي ينقطع فيها كل شيء، الزمن، الصوت، الضوء، الحركة، الخواص، وتتلاشى الكتل والأحجام، وتنطفىء النيران، والأنوار، ويبقى هو.

استيقظ "العارف" دون أن يرى شيئًا في منامه، أو أنه لا يذكر أي شيء، كانت هي الليلة الأولى التي يفقد فيها رؤاه الغريبة، التي اعتاد

أن يخوضها منذ أتى إلى هذا المنزل، ورغم ذلك لم يشعر بارتياح، لقد أخذه الشعور أن هناك ما ينقصه، أو ما يفقده في هذه الليلة، حتى أنه ظن أن دوره قد انتهى عند هذا الحد، أو أن خطأً فادحًا قد ارتكبه أخرجه من تلك الرحمة التي تنزلت عليه من دون موعد، كان قلبه يرتجف كما لو كان قطعةً من الثلج أصابتها نار، فأسرع نحو النافذة فتحها عن آخرها، أخرج رأسه لينظر إلى الشارع، فلم يجد سوى ضباب صباحي خفيف ترتشفه الأزقة الجانبية على مهل، رفع رأسه إلى السماء فأبصرها زرقاء صافية، فعاد إلى داخل الغرفة بعد أن فقد سبل التفسير، التفت إلى الخلف فرأى "أسماء" تقف أمام الباب بملامحها الجادة الصارمة، وتمسك في يدها بفاتورة الحساب، أحنى "العارف" رأسه على صدره ليطالع التميمة التي تتدلى من عنقه لكنه لم يجدها في مكانها، فأيقن أن ثمة شيء لن يحدث، وأن الأمور تسير بلا دهشة هذه المرة، فالتقط الورقة من يد الفتاة وظل يتفحصها حتى اصطدم بالمبلغ المستحق، فقد كان مبلغ خياليًا يفوق احتماله، فأخبرها في هدوء بأنه لا يمتلك الكثير من المال، وأنه سوف يسدد لها فور حصوله على عمل، فحدّقت في وجهه بامتعاض، وجعلته يطبع توقيعه أسفل الفاتورة، ثم اتجهت صوب النافذة وأغلقتها قائلة بلهجة

حادة:

- لا تفتح نافذتك قبل أن تسدد دينك.

- كيف أسدده ورزقي يأتي دائمًا من السماء.

- ما يأتيك من السماء هو فضل، وعليك الآن أن تأكل من سعيك.

وقف "العارف" تحت المصباح المتدلي من سقف الغرفة حائرًا، فترددت نبضات الضوء وكأن هناك من جاء ليراقص كل شيء، لكن "العارف" ظل ثابتًا في مكانه لا يتحرك يفكر في دَينه الثقيل الذي يحجبه عن عالمه المبهج الذي يأتيه من النافذة، كيف يسدده؟ ومتى؟ وماذا يعمل بعد أن خرج عن وعي الأرض؟ وبينما هو كذلك توقف الصوت مرة أخرى، صوت عقارب الساعة التي تجمدت في يده اليسرى عند الثانية عشرة تمامًا، فأيقن "العارف" أنه خروج مؤقت عن الطريق ليفاضل بين حياتين، حياة رتيبة يملؤها التراب، والرماد، والظلام، وحياة أخرى مبهجة تملؤها ألوان حقيقية لا تختفي، ولا تبهت، ولا تُظلم أبدًا، فالسير على جسر المطلق أحيانًا ما يحتاج إلى لحظات من التوقف لنَعي كم قطعنا من المسافات، والوقت، فحياتنا على نصف الأرض كما الشمس التي تشرق وترحل عندما تبلغ المائة

والثمانين غروبًا، لتشرق على النصف الآخر من هذا العالم، أما نحن فنكمل نصف حياتنا الآخر في السماء.

نزل "العارف" بعرائس "الماريونيت" إلى الشارع الأعظم يبحث عن الأطفال ليحكي لهم قصصه الواقعية، لكنه لم يعثر على أي منهم فقد بدا الشارع خاليًا تمامًا إلا من الشيوخ، والدراويش، لكنه رغم ذلك وقف في منتصف الشارع يداعب عرائسه ويقص حكاياه الواقعية على نفسه، وبينما انتهى من سرد قصته الأولى وكانت عن طفل يتيم عاش بائسًا لم يرَ أمه، ولم يلمس كف أبيه، خاض حياته متشبثًا بحلم، وأمنية، خرجت عليه فتاة صغيرة من وسط الزحام بفستان أبيض بسيط، وتوقفت أمامه تستمع إلى حكايته الثانية، وتداعب عرائسه الملونة، وحينما انتهى صفقت له بحرارة، وناولته جنيهًا معدنيًا، وبينما همّ ليبادلها الإبتسامة، ذكّرته برسالة قديمة كانت قد منحتها إياه في ورقة بيضاء، لكنه لم يهتم بها وطوّحها في الهواء، فأكمل ابتسامته حينما استجمع ملامحها في مخيلته مرة أخرى، وجثا على ركبتيه ليمسح لها على شعرها، ويتحدث إليها، أو يستفسر منها، لكنها لم تمهله وعادت تذوب سريعًا بين الزحام، فأدرك "العارف" أن أسماء الله لا تنقطع بل تظل موصولة، لتصل كل العوالم فتتفتح الحجب والأبواب من غير

موعد لعبد أشعث أغبر امتلأ قلبه باليقين، فالأسماء لا يمنحها الله لمن يطلبها، إلا لو كان نبيًا أو رسولاً أراد الخير للناس جميعًا.

تهافت الأطفال على "العارف" من كل حدب وصوب ليستمعوا إلى حكاياه، لكنه لم يجد ما يقصه عليهم بعدما أنهى قصصه الواقعية كلها، ولم يفتح الله له بابًا لهذا السبيل، فأهداهم عرائسه، ورحل عنهم يقبض على قطعة النقود المعدنية التي منحتها الفتاة الصغيرة إياه، واتجه صوب المنزل يشق الأرض شقًا، وكأنه يفر إلى الله لعله يفتح له بابًا ظل موصودًا، فدخل إلى الدار حيث يكمن الضوء الخافت، ويشع النور من الأشياء درجات، فوقعت عينه على "أسماء" تجلس في مقعدها المخملي، تتحسس أوراق الكتاب بأطراف أصابعها، فأحنى رأسه على صدره خجلاً، فما جناه هو نقطة في بحر فاتورة الحساب التي تنتظره، فأشارت له أن يتقدم نحوها، وأوعزت إليه بأن يضع ما أتاه في كفها الذي بسطته أمامه، تردد قليلاً قبل أن يلقي فيه قطعة النقود على استحياء، قلبت قطعت النقود في كفها، ومسحت نقوشها بإصبعيها، ثم قالت له في هدوء غير متوقع:

- هذا يكفي لسداد دينك.

- كيف وما أتيت إلا القليل؟

- رب فئة قليلة تُغني يا فتى.

تلعثمت الكلمات على شفتيّ "العارف"، وسجد لله شكرًا على رسائله التي تتجلى إليه في كل وقت، فقد افتداه الله كما افتدى "اسماعيل"، ومنح العالمين نجاة وحياة، ولما قام من سجوده، ورفع رأسه أبصر المقعد المخملي وقد خلا من الفتاة وكتابها، فنهض من مكانه يبحث عنها في كل مكان، بحث عن يمينه وعن يساره، وأسفل المقاعد، والطاولات، لكنه في كل مرة كان يجد نفسه وكأنه لم يبرح مكانه، فلم تكن الفتاة تبادله لعبة الاختفاء التي تستهوي الأطفال، حتى تظهر في الوقت المناسب قبل أن يقبض عليها، ولكنها تراتيل القدر التي تتدفق على الأرض فترتب الأحداث مثلما كُتبت على اللوح لا هي تصاعدية، ولا هي تنازلية، بل تنمو وتتشعب في كل مكان لتشد أوتارها على أوتاد الخلود، فعاود البحث مرة أخرى بعد أن نسى عن شيء كان يبحث، حتى قادته قدماه إلى الغرف السبع المغلقة، فأبصر نورًا يبزغ من الغرفة الثانية، وسمع صرير بابها وقد أوصده أحدهم، فشعر وكأنه هو من أقام فيها كل تلك الساعات الماضية، وهو من غادرها للتو، وهو...؟

٤- الأبـــواب

بات الفتى على يقين تام بأن لكل مقام باب، ولكل باب مقام للوصول حتى تنفرج المغاليق بإذن الله، فالأمر هنا ليس من قصص الخيال التي يذكر بطلها اسم أحد البقوليات فيُفتح له ويحصل على الياقوت، والذهب، والمرجان، فلا دخل للأحداث الهزلية بدنيا العارفين التي يجب أن تصدق فيها ما لا يُصدق، لذلك فلا مكان هنا لعقل نفعي خُلق لمنح الرغبات الزائلة، بل هي مسلمات قلبية مرهونة بالإيمان الذي لا يتبعه شك بأن تلك السموات السبع رفعها الله بلا عمد، وأن تلك الأرض التي نسعى في مناكبها هي مجرد نقطة تسبح في الفضاء، وأن كل تلك الموجودات الضخمة التي نعيش بينها وننبهر بها، ونضرب بها الأمثال هي لا شيء، لذلك لا دخول إلا لمن سلم قلبه لسبل السماء، أما من تمسك بجذور الأرض فهي له حتى يجف جسده كما تجف الأشجار بعد انقطاع الثمار.

شعر "العارف" برغبة ملحة أن يخرج إلى الناس ويجلس بينهم في صمت، يستمع إلى حكاياهم، ويستمتع بأصوات مقطوعة لا يبالي بها، لكنه درب لابد وأن يخوضه ليعلم أين أخذته المقادير، فلا تمييز لبياض إلا إذا تبعه سواد، ولا شعور بدفء، إلا إذا تبعه البرد، فكان لزامًا على "العارف" أن يفرق بين أمنيته الكبيرة التي يبحث عنها، وبين أمانيهم الصغيرة، فالثلاثة التي اصطدم بظلهم تحت الشجرة تمنوا على صديقهم أمنيات حسبوها نهاية رائعة لهم، أما كبيرهم فقد غفل أن أمنيته العظيمة سيقطفها الموت عاجلاً أم آجلاً، فسخّره الله ليفتح به الأمصار، وتبقى كلمة الله هي العليا..

- ياالله..

كلمة.. وصيحة.. وشعور تقشعر له الأبدان أطلقها "العارف" حينما شعر بأنه ضئيل جدًا أمام كل كبير قدّره له الله، ليكون حبة في مسبحة زاهد، أو رملة في صحراء أبت أن تغفل عن الذكر فكانت عددًا في دعاء مُستجاب، فالعارفون دائمًا ما يجهلون أمانيهم لأنها ممزوجة برحمات الله، ومعلقة بالأبواب، وشراشف السماء.

جلس "العارف" على المقهى يتأمل وجوه الناس المشحونة بالآمال

والأوجاع، ويسترق السمع، فأمنيات تُتلى، ورجاوات، ولكنها مضحكة، فكيف لبشر أن يعلّق أمانيه ببشر والسماء له متسع؟ نظر "العارف" يمينًا، ويسارًا عله يعثر في هذه اللحظات على إشارات الله، لكن صدمه النادل الذي قفز أمامه من جوف الأرض يسأله عن مطلبه، فصمت قليلاً متحسسًا جيبه الفارغ، ثم شعر بحرج شديد فأشار بسبباته نحو المخرج المتسلط الذي كان يجلس في الطاولة المقابلة قائلاً:

- قهوتك على حساب الأستاذ.

ابتسم له "العارف" وحينما همّ أن يشكره دفع الحساب كاملاً، وانصرف عنه دون أن ينبس ببنت شفة، أو يلتفت إليه، فعلم الفتى أنه الفضل الذي يتنزل من السماء على غير موعد.

ردّ "العارف" ظهره إلى الخلف وجلس يرتشف من فنجان قهوته على مهل ويمعن في وجوه الناس، ما بين واجم، ومبتسم، وضاحك، ويائس، ومستبشر، فتمنى في هذه اللحظة أن يجمع الله داخله كل أرواح البشر، ليضع فيها من وجد قلبه فيشعروا بما يشعر به هو الآن، فالرُوح سر، والسر وعد لا ينقطع، والوعد حقيقة تُنتظر، وفي الانتظار أمل، وفي الأمل حياة، ولكل حياة بداية ونهاية، وفي كل بداية قرب، وفي كل

نهاية خلود، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، بينما تدرك العارف دائمًا العلامات التي تقوده إلى أمنيات مختلفة، فهو لم يتمنَ مالاً كهذا الذي يجلس في الطاولة من خلفه، ولم يتمنَ ولدًا كتلك التي تجلس من أمامه، ولم يتمنَ جاهًا أو سلطانًا كما تمناه من ظل يجلس تحت شجرة في الجزيرة الخضراء، "العارف" لا يتمنى بل يُتمنى له، لذلك فرُوحه التي تفيض داخله هي مزيج من كل ألوان الأرض ومعادنها، قبض "العارف" على صدره قبل أن تنطلق أمنيته الصغيرة التي تمناها الآن إلى السماء، فتطفىء غلالة أمنيته الكبرى التي لم يصل إليها بعد، لكنه يشعر بأن المغاليق تحاصره رغم كل الكرامات التي ظهرت له نورًا وبرهانًا، فلم يطمئن قلبه بعد، ولم تهدأ سرائره، فتلك هي الحياة، اضطراب دائم لا يتبعه هدوء، أو صمت، أو سكون، بل يتبعه حياة أخرى أكثر وضوحًا، وإبهاجًا، أطرق "العارف" برأسه على صدره حينما انتهى من رشفته الأخيرة التي ارتشفها على عجل قبل أن يتدخل "النادل" ويحرمه منها، ثم أمعن في النظر إلى ساعة يده التي كانت قد عادت إلى العمل في وقت سابق لم ينتبه إليه، فرآها تشير إلى السابعة مساءً، تململ قليلاً، ثم رفع رأسه منتبهًا إلى "عمران" الذي جاء يكشف له عن قطعة النقود المعدنية قائلاً بصوت هادىء بعدما

أومأ له بأن يلتقطها من بين أصابعه المجعدة

- اطرق الباب وانتظر، واحص حبات مسبحتك حتى يُفتح لك.

انصرف "عمران" دون أن ينبس ببنت شفة، أو يلتفت خلفه، بينما نزع "العارف" المسبحة الكهرمان التي كان قد أهداها له من رقبته، وأخذ يسبح باسم الله دون أن ينتبه إلى غياب التميمة التي عقدها في قصبتها يومًا ما.

انتبه "العارف" إلى غياب التميمة، بحث عنها في كل مكان في ملابسه، في جيوبه، أراد أن ينزع جلده، وضلوعه، لكنه لم يعثر على أي شيء، فتسمر في مكانه حزينًا، فتفاجأ بيد "النادل" تمتد إلى رأس الطاولة ليضع أمامه فاتورة الحساب، فيبدو أن مخرجه المتسلط قد تراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة وغادر دون أن يسدد له ثمن فنجان القهوة، أمسك "العارف" بفاتورة الحساب بأطراف أصابعه وخشي أن يدقق النظر في الرقم المكتوب، فكل ما يمتلكه هي قطعة النقود التي تركها له "عمران"، ثم رحل في صمت تاركًا خلفه حديثًا مبهمًا، فأخرجها من جيبه على مهل ووضعها أمامه، فقفز النادل والتقطها راضيًا، فأيقن أنها تكفي لسداد المبلغ المطلوب، فرفع رأسه إلى السماء وابتسم لله

وتنفس الصُّعداء، وبينما هو على هذا الحال شعر بحبات المسبحة الكهرمان تتحرك بين أصابعه، فصاح بصوت مسموع:

- يا الله.

فالتفت إليه الجالسون من حوله، وتجمدوا في مقاعدهم للحظات، وكأن الزمن قد توقف بهم ثم عاد سريعًا، لقد أدرك "العارف" أنه لم يعد في حاجة إلى شفرة غير مفهومة تتدلى من عنقه لتُشرع له الأبواب، فيكفيه قلبه، ويقينه ليُفتح له، فلولا إيمان "موسى" النبي ما انشق البحر بعصاه، ولا انفجر الحجر بالماء الزلال، فلم تكن العصا وسيطًا أبدًا، بل كانت يقينًا يتبعه يقين للعالمين.

تطلع "العارف" في ساعة يده فرأى عقاربها ما تزال تشير إلى السابعة تمامًا، تفحصها جيدًا فتفاجأ بعقرب الدقائق يطوف داخلها صحيحًا معافى، فقرر أن يغادر مقعده إلى أي مكان آخر بعدما رزقه الله بالعلامات، لكن قبل أن يهم بالنهوض قفز أمامه "النادل" يمنحه التميمة التي سقطت جواره دون أن يدري، فحدق في وجهه طويلاً، وأهداها إياه، فتفحصها "النادل" مبتسمًا، ثم رد إليه قطعة النقود قائلاً:

- قهوتك على حسابي.

انصرف "العارف" يقطع الشوارع، ويشق أنفاس الناس اللاهثة، فأراد أن يصيح فيهم بأن يكفوا عن لهثهم خلف الأماني الواهية، لكنه تذكر أن ما يأتي للعارفين لا يجب أن يطّلع عليه العوام لأنها تفوق قرائحهم المحدودة، فالأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، لكنهم تركوا خلفهم العلامات التي تضيء الطريق على الحائرين، يأتيها الله لمن يشاء، ويهدي بها من يشاء، ولا شيء يشاء إلا بما شاء، فكان الشيء شيئًا بمشيئته، نظر "العارف" إلى أضواء المحال، فتدرج النور شيئًا فشيئًا حتى انتهى بظلام زقاق يضمخ بعطر غريب من مقام مجهول، فتوقف أمام نافذته وقرأ ما تيسر من القرآن، فأضاءت مسبحته الكهرمان، فأرسل تحية لكل من رحل في صمت تاركًا خلفه حرفًا يُسبح به العطر في كل مكان.

في المنزل الذي أواه انفتح الباب، باب الغرفة الثالثة فتوقف أمامه قليلاً يتحسس قلبه النابض ليثبت بين ضلوعه، لكنها أنصاف الطرق التي يجب أن نتوقف أمامها لنحسب لها حسابًا، فنحن نسير على نصف أرض، ونرى نصف شمس، ونبصر نصف قمر، ونعيش نصف حياة، لذلك كان لزامًا على "العارف" أن يتوقف ويفكر قليلاً فيما سيراه،

ويعيشه، ويبصره، فهل لـ"العارف" أن يبصر كل الأشياء كاملة؟ أم أن ما يعلمه سيكون وصلاً بين الأنصاف السابحة في الفضاء؟ وتبقى الـأبواب مغلقة على الأنصاف الأخرى لا يطّلع عليها إلا من أتى الله بقلب سليم، دلف "العارف" من الباب سريعًا، لكنه اصطدم بباب آخر، قرأ عليه اسمًا من أسماء الله فانفتح، فاصطدم بباب آخر، قرأ عليه اسمًا من أسماء الله فانفتح، فإذا به يصطدم بثالث، ورابع، وخامس، حتى أتى على السابع فانفتح قبل أن يحرك شفتيه بكلمة واحدة وكأن أحدهم قد قرأ عنه اسم الله، أو ربما قلبه من قرأ، فهو الآن صار أكثر ثباتًا، وكتمانًا، ورحمة، يكمن داخله سر كبير لا يبوح به لأحد قط، ولا يمكن أن يسرده في أي كتاب كان، فالأمر أكبر بكثير من أن يحصر في حكاية لها بداية، وعقدة، ونهاية سعيدة بالتبات والنبات، وعلى كل من يقرأ هذه الكلمات أن يعي أن حكايا الرُوح لا تأتي منها متعة ولذة كما نظن، فهي كالقهوة المرة لذتها لا تنتهي رغم قسوتها لأنها حقيقة باقية، لذلك لا يطغى عليها السكر مهما زاد لأنه وهم زائل يذوب سريعًا ويختفي، ويبقى طعمه حلاوة للرُوح بعد أن تأسره، وتحوله من كائن صلب إلى سيل دافىء وديع، يسير في العروق كأوتار الموسيقى، وأعواد المطر.

وقف "العارف" تحت القنديل المتدلي في منتصف الغرفة تمامًا بعد أن انفرج أمامه بابها السابع، جال ببصره بين الأركان فرأى في ركنها الأول رجلاً يخرج من بئر ويسقي كلبًا يلهث من العطش من خفيه، وفي الركن الثاني كانت قطة تموء وتأكل من خشاش الأرض، وفي الركن الثالث رأى عصفورًا يطعم ثعبان أعمى، أما الركن الأخير فكان خاويًا من أي شيء، فتقدم نحوه وجلس فيه مكوِّرًا جسده جوار الجدار، فشعر بحبل يتدلى فوق رأسه، أمسك بطرفه واستسلم لمن يسحبه لأعلى رويدًا، رويدًا، فكانت همهمات تقترب من حلقة النور التي انبثقت في الظلام، حتى امتدت إليه يد تجذبه إلى الخارج، أغمض عينيه متهيبًا ما سيراه لكن فضوله أجبره أن يحررهما ببطء شديد، وحينما زالت الغشاوة من أمامه تفاجأ بـ"عمران" يقف مع المريدين جوار المقام في مسجد الإمام، أحضر أحدهم الماء يسقيه، وآخر همّ بتجفيف عرقه الذي تصبب من جبينه، أما "عمران" فظل يربت على رأسه حتى هدأ جسده المرتعد، حملوه إلى المحراب، والتفوا حوله حتى تنفس الصُّعداء، وبعد لحظات لم تطل دفعهم الشغف للسؤال:

- هل رأيت رأس الإمام؟!

- هل حملتها وعطّرتها وقبلّتها؟!

- هل شعرت بدفئها وتحدثت إليها وحدثتك؟!

مسح الفتى وجوههم في صمت، ثم ازدرد ريقه، وقبل أن يهمَّ بفتح فمه ليجيب على أسئلتهم، انطلق المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، فصمتوا جميعًا بعد أن أومأ برأسه لهم، ثم أشهر كفه المخضب بالدماء، فشهدوا جميعًا "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"...

أنهى "العارف" ركعتي الفجر بقلب مطمئن، سلّم يمينًا، فيسارًا، وصافح من في الجوار، ثم أخذ يبحث عن المريدين بين المصلين، بحث عن "عمران" لكنه لم يجد له أو لهم أثرًا، فنهض من مكانه وخرج إلى باحة المسجد حيث الدراويش الذين تهافتوا ليبلغوا الناس رسائل الله، فوقف على رأس الشارع ينصت إليهم ويتأمل المارة الذين انشغلوا بسعيهم حول أنفسهم عن علامات الفرج التي تتنزل عليهم من السماء حتى انتهى المشهد وتلاشى تمامًا، ونسي الفتى ما كان يبحث عنه، فقد تعارفنا جميعًا في الجنة قبل أن نهبط إلى هنا، ثم جذبتنا الغواية إلى الأرض، فالتقينا عليها مرة أخرى وتعارفنا بعدما التقى أبونا الأول بأمنا الأولى فوق الجبل عند منتصف العالم تمامًا، لكن كُتب علينا الفناء، لذلك كان يجب أن يفنى كل منا الآخر ليأتي آخرون، وآخرون، فاقتتلنا، قتلنا وقُتلنا، ثم أصبحنا غرباء بسفك الدماء، كما

أصبحنا ضعفاء بالنسيان لذلك كان لنا رحمة ونجاة.

عاد الرجل يحدث أصدقائه تحت الشجرة في الجزيرة الخضراء، لكن هذه المرة كان واضحًا تمامًا لـ"العارف" الذي بات يرى كل الصور الهلامية التي تتخلل صفحة الواقع كما هي، فتبدو أمامه كحلم لا يتدخل في أحداثه، لكنه يعيش تفاصيله كاملة، فجلس جوار "المنصور" لعله يطلب منه أن يتمنى عليه كباقي الأصدقاء لكن ذلك لم يحدث، فالأمنيات لا يحققها السابقون بل نحن من نشفق عليهم من حين لآخر فنتأمل صورهم المعلقة على الجدران ونتمنى لهم الرحمة، ابتسم "العارف" بل ضحك على ما تمناه ثالثهم الذي سخر من حلم صاحبه حينما تمنى عليه أمنية هزلية لا تتناسب مع اللحظة المهيبة التي استحضرها "المنصور" في خلسة من الوقت، أراد أن يخبره بمصيره المحتوم، لكنه تذكر كتابه الذي كانت تقرأه "أسماء" بأطراف أصابعها دون أن تغير أو تبدل أحداثه، فأيقن أن لكل عارف وسيلته التي يقرأ بها مصائر البشر، لذلك عليه أن يتمسك بأمنيته الكبيرة ولا يسخر أبدًا من أماني الآخرين، فنهض من مكانه بعد أن أدرك أنه يرى، ويُرى، يقرأ، ويُقرأ، يشعر، ويُشعر به، ويفتح له الأبواب من سبقه إليها ففُتحت له، فتلك هي درجات النور والإشراق، فالقنديل

كلما كان صافيًا زاد توهجًا، ولكن القنديل ذاته درجة من درجات النور الدني لأنه مصدر فان، أما أصحاب القلوب الصافية فلهم حياة أخرى أكثر إشراقًا، لذلك تُفتح لهم الأبواب، وتتفتق لهم الحجب.

أدرك "العارف" أنه كلما طاف في الأرض عاد، وكلما عاد كُتب عليه طواف جديد يعثر به في كل مرة على نفسه الضائعة، فأسرع الخطى ليحظى بالمزيد، والمزيد، فهو الآن لا يعيش دورًا آخر سوى دوره الذي يجب أن يؤديه على أكمل وجه، فدور حامل الحرباء لم يكن دوره الذي يرتضيه على خشبة المسرح، بل رسمه له مخرج أحمق أراد أن يفرض عليه أمنيته هو ليحظى بالمجد وتصفيق الجمهور، لذلك سقطت حربته سهوًا وأفسد ما أراده له المخرج المتسلط، فهو الآن بطل يمثل نفسه فقط، ولا ينتظر أن يأتي أحد ليتقمص دوره ببراعة، ويصفق له الجمهور، فهو الآن قد صار كما هو لا كما يريده الآخرون.

وصل الفتى إلى ساحة "بيت القاضي" حيث ينزوي البيت القديم الذي يقيم داخله في أحد أركانها عند بداية الزقاق الشرقي المؤدي إلى مسجد الإمام بعد تشعبات عدة من أزقة أخرى، كانت الساحة هادئة، وخالية تمامًا إلا من أضواء خافتة ترتق حواف الحجارة العتيقة بالنور، فالتفت "العارف" إلى مقعد الأمير "ماماي" فرأى أشباحًا تروح،

وأشباحًا تأتي داخله، لكنه لم يفسر ملامحهم بالقدر الكافي، فقد كانت ملابسهم البيضاء تعكس الضوء على عينيه بشكل مثير، ورغم أن المشهد قد بدا غريبًا، ومرعبًا إلا أنه قرر أن يقترب، فلا شيء يدعو للخوف، أو القلق، فالخوف سببه مخالفة المنطق بخيال شرير، ولو كان الخوف موجودًا لرأينا سحب السماء وحوشًا ضارية، والبحر تنورًا يفور من الغليان، بينما ما يعيشه "العارف" يفوق الخوف، والمنطق والخيال، والواقع، فقد كُتب عليه أن يمتطي صهوة المطلق الذي يتخطى به كل المشاعر ليصل في النهاية إلى اللاحب، واللاكره، واللاحزن، واللاسعادة، واللاهبوط، فقط هو يصعد، ويصعد، ويصعد، ومن يصعد لا يتملكه شعور تافه كما الخوف>

لذلك كان يقترب من الأشباح دون أدنى تردد، أو حذر، أو ارتعاشة تقصيه عن الطريق، فظل يتقدم بخطى ثابتة، لكن قبل أن يضع قدمه على سلم المقعد، سمع صوتًا يناديه، صوت "أسماء" التي تحترف لعبة الاختفاء كالأطفال، لكنه لم يلتفت إليها أبدًا، فقد صار أكثر إدراكًا بأن الأمنيات لا تأتي أبدًا من الخلف، وأن الأبواب المفتوحة دائمًا ما تأتي من الأمام، لذلك خلع نعليه ومضى في طريق الصعود يقذف درجات السلم الحجري ليكشف ما أخفته ضلالات الظلام، لكنه تفاجأ بأن

المقعد خاليًا تمامًا، إلا من جلباب أبيض، وعمامة خضراء، وعصا من شجرة "العوسج" لا يتكىء عليها أحد، فأيقن بأن من كان هنا قد عبر إلى الجانب الآخر وترك له هذه العلامات لتشد من أزره، وتجعله أكثر قوة وعزمًا، فمنتصف الطريق هو آخر نافذة يمكن أن تلتفت منها إلى الماضي، وهو أول نافذة يمكن أن تبصر منها بشائر المستقبل.

ارتدى الفتى الجلباب، وأحكم وثاق العمامة الخضراء، واتكأ على العصا، وعاد إلى الباحة التي امتلأت عن آخرها بالبشر، فألقي بنفسه بينهم ليختلط بالأحاديث، والهموم، والفرحات الصغيرة، والأمنيات المعلقة التي يصارعهم عليها الموت، فرائحة المرض تفوح من أفواههم كما الكُحل المعتق ولكنهم لا يشعرون، فالآلام تسير ببطء شديد في أجسادهم ثم تهاجم خلاياهم الشاردة فجأة فيسقط الواحد تلو الواحد سريعًا كمن أصابه سهم طائش، لم يكن أحد يهتم بوجود الآخر، فالكل يعبر ويسير وتتلاشى بينهم نقاط التلاقي وتنتهي دون أن يحتفظ أحد للآخر بذكرى عابرة، أو حتى ابتسامة، فكان الصمت يعمهم وسط ضوضاء الأشياء>

رفع "العارف" عصاه لأعلى ثم ضربها في الأرض، فتجمد كل شيء على حاله، وتحولت كل الألوان للون الرماد، حتى أصبح جلبابه الأبيض،

وعمامته الخضراء لونين مبهجين وسط الحياة الباهتة التي يعيشها هؤلاء المتحولون، فنحن جميعنا في هذه الحياة أشباح متحولة من عالم النور إلى عالم الرماد، ويبقى الأصل في السماء نُرد إليه حينما يؤذن لنا بعبور الأبواب تاركين خلفنا لمم الدنيا وبقاياها لمن يريد أن يخوض الرحلة الدنية، لذلك ظل "العارف" يضحك على هؤلاء الذين أغوتهم حكاية الهبوط فظنوا أنهم مخلدون تحت شمس تغدو وتروح، وقمر يسرق النور للحظات ثم يرحل، بينما غفلوا أن الخلود هناك في الجانب الآخر حيث الأمنيات المحققة، قطع الفتى الباحة الكبرى ثم ضرب الأرض بعصاه فعادت الألوان الخادعة، وعادوا يدورون كما الماكينات التي لا تهدأ ولا تستقر، فقط هي تطحن كل شيء بلا رحمة.

عبر "العارف" بوابة "بيت القاضي" إلى قرية قديمة بنى أهلها بيوتهم بحجر أسود ثم حجر أبيض، فبدت القرية وكأنها رقعة شطرنج عتيقة يتحرك فوقها الناس يصارعون الأضداد، استقبلوه بترحاب شديد، وكأنه كان هنا يومًا رجل ذا هيبة وجلال، فتلقاه فتية شداد يتوجونه ملكًا عليهم فلوح لهم بيده اليمنى بعد أن نسى من أين أتى، وأين كان، لكنه الآن صار حكمًا بينهم يتلقى مظالم العباد، يشير بعصاه فيُطاع، فدعا ربه أن يلهمه سدادًا وعدلاً به يقيم حبًا، وإيمانًا صادقًا،

فصدّقه قومه حتى أتاه المذنب عبدًا تائبًا، فظل الفتى يقيم بينهم حتى انقضى الظلم واختفى تمامًا، فباتوا يسيرون على خط مستقيم بملامح متشابهة، وتحولت منازلهم إلى حجارة بيضاء، فركدت بضاعتهم، وهدأت شوارعهم، واختفت التعاريج من حياتهم، حتى تجمدوا جميعًا بعدما تلاشت الأضداد، فما عاد للمُلك قيمة من دون مظلوم جاء يستجدي إنصافًا، وظالم جاء يقسم إجحافًا، فنسوا الفتى حتى ملّ المقام بعدما أصبح وحيدًا لا يتردد عليه أحد من أصحاب المظالم ، فلا قيمة للخير من دون شر، ولا قيمة للنظائر، والأشباه، من دون ضد، فضرب بعصاه الأرض فعادوا إلى سيرتهم الأولى بين سواد، وبياض، وبين ظلم وعدل، فتركهم يصارعون الأضداد ورحل بعد أن أيقن بأن ركام الزمن يعتليه من كُتبت لهم الحياة بعد موت، فبين الحيوات يكمن خير لا يموت، وشر ينقضي، وشر يأتي، فعبر الفتى من باب آخر لا يعرف اسمه، ولا يعرف إلى أين يؤدي، فالمجاهيل من الأبواب يجب أن نعبرها سريعًا؛ لأنها حتمًا ستؤدي إلى أماكن أكثر شغفًا، لكن شغف "العارفون" دائمًا ما يتعلق بالسماء لذلك لم يعثر الفتى على أي شيء في الجانب الآخر، فمضى في طريقه دون أن يعلم إلى أين سيذهب، أو إلى أين سيعود.

ضرب بعصاه الأرض..

فأمطرت السماء صورًا، وعرائس وشرائط ملونة، وعبارات، لم تكن الصور لشخوص يعرفهم، أو سبق أن رآهم، لكن نظراتهم كانت لا تخطئه، فمنهم المبتسم، ومنهم الواجم، ومنهم من امتلأت عيناه بالشفقة، أما العرائس فكان يعرفها جيدًا لأنها من صنع يده، لكنه كان قد تنازل عنها يومًا لأطفال الحي ردًا على ما منحوه من بهجة، فجثا على ركبتيه ليجمع كل هذا لكنه اصطدم بالعبارات التي كانت تتلاشى كلما حاول القبض على أي شيء، تلاشت كل الأشياء سريعًا؛ الصور، العرائس، الشرائط الملونة، والعبارات، لكن بقيت عبارة وحيدة تلمع أمام عينيه، فقرأها بصوت مسموع:

- لا ترتدي رداءً ليس لك.

نظر الفتى إلى ما يرتديه من جلباب، وتحسس العمامة الخضراء بيديه، ثم قبض على العصا بعدما أدرك بأنه يجب أن يعود ليرد الأمانات إلى أهلها، فليس "للعارف" رداء به يُعرف، فيجب أن يكون إنسانًا عاديًا جدًا، يتناول الطعام، والشراب، ويسير في الأسواق، ويرتدي من قماش العوام، ويتحدث إليهم، ويشتري منهم، ويبيع لهم، ثم يرحل بعد أن

يترك بينهم علامة بها يذكرونه إذا عاد إليهم حاملاً برهانًا وصدقًا.

أعاد الفتى الجلباب، والعمامة الخضراء، والعصا إلى مكانهم في مقعد الأمير "ماماي" ثم ارتدى ملابسه العادية جدًا؛ القميص، والبنطال، ثم نزل إلى الساحة يسير بين الناس، لكنه قبل أن يغادر المكان التفت إلى المقعد فرأى الأشباح قد عادت للظهور مرة أخرى، بينما ظل يتابع من صعد السلم الحجري ليتقصى أثرهم، ثم هبط متكئًا على العصا ومرتديًا العمامة، والجلباب، فظل يحدق كل منهما في وجه الآخر حتى انقضى ما كان مفعولاً بعد أن اجتمعا في نقطة تلاقي كي يتفرقا، وعلى الله قصد السبيل، ولكل عارف حرف يأتيه به يرسل للناس نقطة من ضوء، فتتعدد النقاط، وتتابع، وتتوالى، وتتعاقب، فتصعد إلى السماء مصابيح تتدلى منها أرواح العارفين، فيرقصون معًا بجسد واحد يجمع كل الأحرف التي وهبها الله إياهم حتى ينفتح لهم الباب الأعظم الذي منه تنفذ كل الحقائق، وكل المصادر، وكل المكاتيب المقدّرة.

في المنزل كانت كل أبواب الغرف السبع مغلقة، فصعد "العارف" إلى غرفته في الدور العلوي فلم يجد للنافذة أثرًا في الجدار، رفع رأسه إلى المصباح المتدلي من سقف الغرفة فرآه مصباحًا عاديًا جدًا يشع بنور خافت يكاد يرى به الأشياء، كان المنزل خاليًا تمامًا من "أسماء"

و"عمران"، لكنه تفاجأ بنزيل جديد جاء يسكن غرفة انبثقت فجأة جوار غرفته، لكن الملابس التي ينشرها على الحبل في الخارج لا تشي إن كان ذكرًا، أم أنثى، وذلك لأنها ملابس باهتة خالية من العلامات، ورغم هذا لم يعبأ الفتى بالتغيرات التي طرأت على المنزل خلال غيابه، فقرر أن يشغل فراشه بجسده وينام، لعل في النوم إجابات عجز عن الوصول إليها وهو في كامل وعيه، لكن الدقات المتتابعة العنيفة التي كانت تأتيه من جدار الجار لم تسمح له بهذا، حتى أن محاولاته المستميتة في عزل نفسه عن تلك الدقات بوضع سدادت في أذنيه لم تجد له نفعًا، فالصوت كان ينخر رأسه بشكل مستفز، فنهض من فراشه وتوجه صوب غرفة جاره الجديد؛ لينهاه عن دقاته المزعجة فتفاجأ بباب الغرفة ينفتح أمامه قبل أن يهم بطرقه، توقف قليلاً ليطالع من في الداخل لكن الظلام كان يحجب عنه رؤية أي شيء، فتقدم بخطوات حذرة في اتجاه الدقات فبدأت الرؤية تتضح شيئًا فشيئًا بعدما تعادلت عيناه مع الظلام حتى وقع بصره على الطائر الذي وقف ينقر الجدار بلا توقف محاولاً إحداث فجوة للخروج، فتسمر في مكانه بينما كان الطائر قد انتهى.

لكن يبدو أن ما أراده الطائر لم يكن فجوة للخروج كما يظن، بل ما

أراده أن تكون فجوة للدخول، دخول النور، والطيور البيضاء التي تهافتت على الغرفة من الخارج وحلّقت حوله، طوقته سريعًا، وأخذت تحوم، تحوم، تحوم حتى امتزج "العارف" بالبياض، وامتزج البياض، بالنور، بـ"العارف"، حتى التحمت العناصر بالعناصر، وتداخلت الخلايا مع الخلايا، وانصهرت الفجوات في الفجوات، وذاب الماء في الماء، فخرج جسد من هذا المزيج يستلقي على الفراش، بعد أن تبخر كل شيء وتوهجت الغرفة، وانشق الجدار بالنافذة من جديد، وتدلى المصباح صافيًا يكشف عن كل معالم المكان، فاستيقظ الفتى في غرفته على دقات الطائر يقرع النافذة في الخارج، فنهض من مكانه وفتحها على عجل، فداهمته رياح عليلة رطبة تنفس منها كأنها رُوح مطمئنة أرسلها الله لتسكنه، فتهدأ نفسه وتستقر، نظر للطائر الذي وقف أمامه يرخي جناحيه في استسلام، مدّ كفه إليه فصعد إليه سريعًا، ثم نقره سبعًا حتى أضاء، فأضاء الصبح وتنفس، وخرج الدراويش من الأزقة يسعون برسائلهم بين الناس، فابتسم "العارف" وأشرق وجهه حينما أبصر بابًا في السماء ينفتح رويدًا.. رويدًا، يخرج منه العارفون، وتنفذ داخله الأرواح الطيبة، حلّق الطائر وارتفع حتى اختفى بين السحاب، مدّ الفتى كفه ليستقبل المطر الأول الذي هَمَى على الدنيا ليغسلها بردًا،

وسلامًا، ويطفيء غُلة القلوب، ويزيد العاشقين شوقًا، رفع الفتى رأسه إلى السماء حتى طال وجهه البلل، فانطفأ كفه، ولم ينطفىء، وأغلق النافذة وعاد إلى فراشه لكن شيئًا لم ينغلق، فصار الجدار كله نافذة منها يمد بصره ويرى.

طرقت "أسماء" باب الغرفة ودخلت بالطعام، أراد "العارف" أن يتحدث إليها، ويسألها، لكن هاتفًا أخبره بأنها لم تعد تملك إجابات، فأبواب هي تُفتح لمن كُتب له أن يرتقي، ولكل باب طاقة، ولكل طاقة امتداد، وانتهاء، فصمت الفتى بينما هي من أرادت أن تسأل، فسبقها بالإجابة مشيرًا إلى النافذة:

- من هنا يمكنني رؤية كل شيء.

أحنت الفتاة رأسها على صدرها في خجل، وقبل أن تطرح عليه سؤالاً آخر داهمها بالإجابة:

- اسمك "أسماء".

ابتسمت الفتاة وتراجعت ببطء شديد تتحسس طريقها نحو الباب، حتى غادرت دون أن تُزيد، فأيقن "العارف" أن للرحلة رفقاء هم خُدّام للأبواب، فإذا فُتح باب انقضى دور واحد منهم، وتحول من حامل

قنديل إلى شخص عادي جدًا، لكن "أسماء" مازالت تحمل الكتاب تتحسس مواضعه وتقرأ الحكاية، لذلك فهي تأتي إليه من حين لآخر لتقص عليه ما قرأته، ثم ترحل دون أن تضع نقطة للتوقف، فالعارفون ليس لقصصهم نهايات، بل هي كما النور بدايات تنبثق من بدايات حتى تصل الحكاية إلى بادىء ذي بدء في السماء.

أنهى الفتى طعامه وكان من البقول، أما الشراب فماء ترك بعضًا منه لوضوئه، توضأ ودخل في صلاته يقرأ من "الدخان"، فرأى في سجوده بابًا يُفتح له من بعيد يبزغ منه نور، وقدر، وعلامات، فأطال.. فانغلق الباب، فقام، ثم عاد للسجود، فرأى بابًا آخر يُفتح له تبزغ منه وجوه باسمة، ناضرة، مستبشرة، فأطال.. فانغلق الباب، فقام ثم عاد للسجود، فرأى بابًا يُفتح له ويُغلق، يُفتح ويُغلق، وظل على هذا الحال حتى كانت السجدة الرابعة التي رأى فيها بابًا مغلقًا لم ينفتح بعد.

٥- عبورٌ آمن

أنهى "العارف" ركعته الرابعة، وأمسك بمسبحته الكهرمان، ثم جلس على الأرض يتمتم بالختام، ويفكر في أمر الباب المغلق أمام الغرفة الرابعة، وربما شدّه التفكير إلى ما اجتازه من أبواب، لكنه اعتاد أن الأمنيات لا تتحقق عمدًا، المهم أن يسكنه اليقين الذي به شق موسى البحر بعصاه ليعبر إلى الجانب الآخر، لينجو بحياتنا جميعًا من فرعون وجنوده حينما كان البحر أمامه والطاغوت من خلفه، ولو أن موسى فقد يقينه للحظة واحدة ما استجابت العصا لرغبته، وما كانت نجاته هو وقومه، فاليقين يؤتيه الله لعباده ليكون حدًا فاصلاً بين الممكنين؛ الرباني والإنساني، لذلك كان لابد لـ"العارف" أن يكون أكثر إيمانًا، ويقينًا، ورشدًا، وثباتًا، حتى تعبر رُوحه بسلام إلى حيث يشاء الله، فتتجلى في شقوق النفس طلاسم السمو، ويبقى البدن على الأرض آية تسعى إليها جدائل النور، ليظل أملاً لكل مشتاق أتى يلتمس من سيرته

وقودًا ومددًا.

حدّق "العارف" في الجدار فرأى.. لكنه سمع أنينًا للنافذة فنهض من مكانه وظل يمسح عليها بيده حتى تلاشى الأنين شيئًا.. فشيئًا، فهكذا هي الأشياء التي نظنها جامدة إذا شعرت بأن مهمتها قد انتهت تبكي بكاءً يفقهه العارفون، لذلك إذا عبر أحدهم فإنه يلقي السلام على كل شيء، حجرًا كان أم بشرًا، فكل من عليها يحيا، وكل ما عليها يشعر، يضحك، ويبكي حتى تحين لحظة الفناء، تقدم الفتى ناحية الجدار، ثم عبر إلى ما بعد الجدار، فجميع الطرق الآن ممهدة، على اليابسة، وفوق سطح الماء، فبسم الله مجريها، ومرسيها، وما المنع إلا رحمة كبرى يُبتغى منه عطاءٌ خالدٌ، مضى الفتى في طريقه دون أن يلتفت لعذابات القلوب التي تتراكم أمام أبصار العباد كالجبال فتحجب الضوء بالنار، وتحجب نور العشق بظلام المبصرين، فالعين خدعة كبيرة نرى بها خدعة أكبر، فنرى ولا نرى، أو كأننا نرى.

لذلك سرعان ما نسقط سريعًا قبل العبور، لكن من كان قلبه نافذته فهو ثابت على كل حرف، وحدّ، وخيط، كأنه يسير على متسع، وسعة، فلا يضيق أمامه أفق، ولا يقسو من تحته لين، ولا يُقصي أوبته قريب، لذلك فهو يعبر في طرفة عين أو أقل قليلاً، يعبر إلى حيث تبدأ الكتب حرفها

الأول، ويعبر إلى حيث تستقبل الأنهار بشائر النبع، ويعبر إلى حيث تُذيب البراعم قشرة البذار حينما تتلقى قطرة المطر الأول، فيعبر إلى حيثما يعبر فلا يمنعه مانع إلا بمنع أراد منه حكمة، أو قدر لم يغيره دعاء، فالعبور دائمًا ما يكون بين نقيضين وإلا كان مشيًا في المكان لا طائل منه، فيكون من الظلام إلى النور، ومن البرد إلى الحرور، ومن عسرة إلى ميسرة، ومن ضر إلى نفع، ومن ملح إلى عذب، ومن موت إلى حياة، ومن قهر إلى عدل، ومن رهبة إلى رغبة، ومن قسوة إلى رحمة، ومن نار إلى جنة، ومن رسوخ إلى تحليق، ومن وهم إلى حقيقة، ومن فناء إلى خلود، لذلك فكل الطرق ممهدة للعارفين إلا من حواجز عارضة قد تزول بالصعود.

في غابة الأشجار كان "العارف" يجمع الحطب للخباز الذي استجاب الله لدعائه؛ بأن يجعل له خادمًا يشدّ من أزره بعدما تقدم به العمر ووهن العظم منه، فظل يفكر في أمر النار التي ستنطفىء في أي لحظة، فالرغيف هو أمل للجوعى، والنار أملها الإنضاج، والخبز يأتي من التراب، ليُطحن بالتراب تحت عذابات الضعفاء، وأصحاب الآمال الصغيرة لتصلهم فرحة، وشبعًا، فذلك هو العشق الحقيقي الذي يعبر من أجله الآملون، فالعشق هم كبير، وهو دواء للهم ذاته، لهذا

لم ينخدع "العارف" بكينونة المكان، ولا بكينونة الزمان، ولا بكيفية الوصل ولا النقل فكل أرض في هذه الدنيا هي مسافة تتلاشى أمام اليقين، فأسماء البلاد، والعباد ما هي إلا علامات لمن جهل الاسم الأعظم، لذلك لم يكن الأمر برمته يعني الفتى، شاء اللّٰه له أن يكون ملكًا فكان، وشاء اللّٰه له أن يكون خادمًا فكان، وللّٰه الأمر كله من قبل ومن بعد.

عاد الفتى بحمل الحطب للخباز وقبل أن يهم بإلقائه تحت قدميه رمقه الشيخ بنظرة حذرة قائلاً:

- الق بحملك بهدوء واحرص ألا تخدش فروع الحطب.

- لكنه جماد ستحرقه النار!

- إياك أن تجرحها بقولك بأنها بلا رُوح.

- وماذا عن النار يا شيخ؟!

- النار تتضرم بأنفاس العاشقين يا فتى.

صمت الشيخ للحظات ثم اغترف من العجين غرفة بيديه، وبدأ في تشكيلها، ثم التفت لخادمه قائلاً:

- أفرغ الطحين في الجرن وحضّر عجينتك يا بُني.

- لم أعمل خبازًا من قبل يا شيخ.

- لكل إنسان حمله وعجينته التي يشكلها فلا تبخل برغيفك على الناس.

أفرغ الفتى الطحين في الجرن، وصب عليه الماء، وبدأ في العجين بينما ظل الشيخ يتابعه في صمت حتى انتهى من تشكيل رغيفه، تقدم الشيخ نحوه وحمل الرغيف النيء قائلاً:

- عجينتك تشبه قلبك يا بُني فارفق بها.

- أرفق بها وأنا من جمعت للنار الحطب!

ابتسم الشيخ للفتى وهزّ رأسه قائلاً بلهجة مشفقة:

- قلوب العارفين تُطهى بالنار ولا تحترق.

قالها ثم مدّ يده لـ"العارف" يطلب عجينته ليقذفها في التنور الذي يشع دفئه في المكان، فبدا كأنه سحر يجذب إليه محبي الحياة، فنظر الفتى إلى العجين الذي سرعان ما انتفخ، وبدأ وجهه الأبيض يأخذ من لون اللهب، ثم من لون صبغة صانعه حتى أضحى العجين وجهًا صبوحًا يشبهه، فأضحى رغيفًا ناضجًا، ابتهج الفتى لما رآه، فأمره

الشيخ أن يغيث رغيفه قبل أن يحترق وتأكله النيران، فاندفع الفتى إلى التنور مسرعًا فتفاجأ بأنه لا يحوي حطبًا مشتعلاً، ولم تمسس رغيفه نار، فقد كان التنور خاليًا تمامًا، لكنه ظل مضيئًا من دون وقود، فعاد الفتى إلى شيخه يحمل رغيفه بكلتا يديه، وقد تسربت دمعة من عينيه وانحناءة تقدير، فربت الشيخ على كتفه حتى انتفضت ذرات الطحين من ملابسه لتعلق بالهواء ثم قال مبتسمًا:

- إنها نار للحياة كالتي سوّتك رجلاً وليست نار للعذاب.

- لقد وصل الرغيف إلى سر النضج من دون نار يا شيخ.

- أنت مثل القمح تمامًا يا "عارف" هرستك أوجاعك، وعجنتك "أسماء" باليقين في تكيتها، وعبرت إليّ الآن لتتشكل، وتُطهى لتصل إلى سرك مثل الرغيف الذي وصل إلى سر النار.

- وكيف أصل إلى ...؟!

- تذكر يا فتى "العارف" يُسأل ولا يسأل.

- لكن قلبي يؤلمني.

تقدم الشيخ نحوه في هدوء، ثم أسند راحته اليمنى على صدره، واليسرى فوق رأسه، وعلّق بصره بعينيه طويلاً ثم تحدث بلكنة حالمة:

- عليك أن تبدأ طريق العشق ليصل قلبك إلى سر النضج.

- العشق!

- ابحث عمن يحبك.. فالماء أيضًا يبحث عن الظمآن.

- العشق!

- هناك الكثير من الطرق للوصول إلى الله يا بني فلا تتعجب، البعض يحمل الحجارة كإبراهيم، والبعض ينظم الشعر مثل مولانا، والبعض يخطّ على الرمال كما إدريس، والبعض يقول سبحاني، والبعض يهيم في الأرض كالحلّاج، ومهمتي هي تحضير الخبز لإشباع الجائع، لكن "العارف" لا تشبع رُوحه مهما زادها علمًا، وعشقًا، وصعودًا؛ فالمعشوقية يا بُني هي من تصنع الوجد والهُيام للتخلى عن عبء الجسد، وترتقي إلى الملكوت.

- لقد عشت لا أعرف الحب، فقد كان ميلادي هو خروج حي من ميت، لقد ماتت أمي يوم صرخت بالحياة ولم أجد من يُعلمني إياه، لكني وجدت في عرائسي ملاذًا لهذا الحب المفقود فخرجت بها للأطفال أجمع من وجوههم الإبتسامات التي فقدتها قبل أن أُولد، بينما لم أكن أبتسم أبدًا.

- يابُني أطعم فتُطعم، قسِّم رغيفك على الجوعى يأتيك الحب من كل مزقة، ومذاق، فهناك من يذوق مزقتك حلاوة، وهناك من يتذوقها طلاوة، وهناك من تُغنيه عن ولائم السلطان، وفي النهاية يعود إليك الحب مكتملاً في رغيف تصنعه بالعرفان.

صمت "العارف" للحظات، بينما كانت دموعه تبزغ من عينيه، فمدّ الشيخ يده يصافحه، ثم ضمه إلى صدره وعانقه بشدة قائلاً له بإبتسامة حانية:

- ارحل يا بني.. ابحث عن العشق، تدفق كما الماء من قلب إلى قلب، وحتمًا ستعثر على قلب صادق تعبر منه إلى السماء، فالعبور إلى العشق لا يكون أبدًا إلا بالعشق.

- العشق!

- رددها لتتذوق حلاوتها كما الخبز، لكن عليك أن تعلم أن كل ألم ستواجهه هو اختبار فلا تملّ الوجع، أو الاحتراق، هيا رددها.. هيا يا فتى.

- العشق! العشق! العشق!

- دعوت الله أن يرزقني بك فاستجاب.

- أردت خادمًا يدعمك، فآتاك قلب يتألم فاحتويته.

ابتسم الشيخ للفتى وربت على كتفه، ثم عاد لعناقه مرة أخرى ولكن هذه المرة كان عناقًا للوداع، التفت الشيخ للضوء المتسلل من النافذة ثم قال في شرود:

- بل قل إن فؤادك سيقودك إلى المكان الصحيح.

التقط الخباز رغيف خبز ووضعه في يد "العارف" بينما كان يتقدم الفتى نحو الجدار ليستعد للرحيل إلى عالم بلا طريق، وبلا مسافات، وبلا حواجز، لأن كل عوالم العشق هي عوالم شاسعة كما البحار لا تحدها إلا سماء زرقاء بها وجه باسم، ونجمة وحيدة تضيء ولا تنطفىء أبدًا.

في تكية "أسماء" كان "العارف" مازال يمسك بمسبحته الكهرمان يختم صلاته ويتطلع لنور الصبح الذي شق الجدار، فشهق الفتى حينما طال الدفء قلبه الله..الله.. لم تكن نفسه القلقة لتطمئن أبدًا إلا بتلك الشهقة التي تشبه شهقة الحياة، وشهقة العشق الذي يبحث عنه، فكانت هي المرة الأولى التي ينحرف فيها عن دائرة البحث عن أمه، وأبيه، إلى بحث آخر يأخذه كماء يتدفق يحمل زهرة إقحوان نبتت

وربت وتفتحت في الصحراء حتى أصابها الظمأ، فاقتلعها عصفور طيب، وألقاها في نهر يصب في السماء، فالبحث عن العشق إما أن يُرفق برحلة طويلة يجوب فيها العاشق البلاد، ويعبر البحار، ويقطع الصحاري، ويصعد الجبال، ويهبط إلى الوديان، يعاشر الأقوام، والطيور، والعشب، وإما أن يأتيه ما يبحث عنه قبل أن يبرح مكانه، نهض "العارف" من مكانه يبحث عن علامة الطريق، فعثر في فراشه على رغيف الخبز الذي أخذه نفحة مباركة من الخباز، حمله بين يديه برفق، ثم وضعه في حقيبته السوداء، وعزم أن يبدأ طريقه بأول مزقة يهديها لدرويش محتاج، لكنه سمع نصيحة للخباز تأتيه من مرمى البصيرة:

- أنت من يجب أن تتوسل للدراويش يا بني ليقبلوا منك مزقات رغيفك.

- المانح لا يتوسل يا شيخ.

- ليست كل الأمنيات جلب، فالأمنيات الكبيرة تتعلق بالعطاء، وأنت تمتلك الرغيف وهم يمتلكون الحب، والحب درب من دروب العشق والعطاء، فاحرص على أن تترك لهم إبتسامة مع كل مزقة خبز يتذكرونك بها فإبتسام الدراويش دعاء لايُرد.

- ذابت أمنياتي الصغيرة كلها والآن أنا أبحث عن السر.

- من يبحث عن شيء يعثر عليه، لكن عليك أن تحترم أسرار الآخرين.

- ربما أصبحت أكثر علمًا من ذي قبل لكن قلبي..

- اجعله كما عجينتك مصلوب القوام لينضج على مهل بنار العشق.

احتفظ الخباز بابتسامته، ثم استدار للتنور يجذب ما نضج من الخبز، بينما خرج "العارف" إلى الباحة الكبرى يبحث عن الدراويش لينهل من قلوبهم الحب.

تدفق الفتى من زقاق إلى زقاق يوزع اللقيمات على الدراويش، حتى بقيت لقمة أخيرة في يده مـازال يبحث لها عن محب يمنحه دعاء وابتسامة، بحث "العارف" كثيرًا حتى تورمت قدماه فجلس ليستريح قليلاً جـوار جـدار قديم في شارع مجهول، يتوسطه شباك خشبي متهالك فأتاه درويش يسأله عن سبيل ماء، فالتفت إليه الفتى، تفحص وجهه طويلاً، وخُيل له أنه قد رأى هذا الوجه من قبل، كما خُيل له أنه قد جلس جوار هذا الجدار، وهذه النافذة المتهالكة من قبل، فهمّ أن يسأل فبادره "الدرويش" بقوله:

- تذكّر.. "العارف" يُسأل ولا يسأل.

- لكنني لا أمتلك ما يُطفيء غُلتك.

- تكفيني قطعة الخبز الأخيرة فمنها الماء، والطعام.

- أبحثُ عن العشق ولكن نفدت اللقيمات ولم أعثر عليه بعد.

- مازلت تمتلك أشياءً كثيرة.. فتخلَّ عنها ليأتيك خالصًا.

مدّ "العارف" يده بقطعة الخبز الأخيرة للدرويش فاحتفظ بها في يده ثم منحها لدرويش عابر، أخذها وطار بعيدًا، فالتفت الدرويش للفتى قائلاً:

- منحها لك الخباز، فمنحتها لي، فوهبها الله لي ولك وله.

- العشق!

ضحك "الدرويش" وربت على ظهر الفتى، ثم ردد الكلمة، وقام من مكانه ينادي:

- مدد.. يا أم العواجز مدد.

وبينما أراد "العارف" أن ينهض من مكانه هو الآخر لحقه حلاق بحقيبته، ودون استئذان لف منديلاً حول عنق الفتى، وطفق يُعمل المقص في شعره الطويل الذي سقط على جبه، وعلى كتفيه دون أن

يدري، ولما انتهى من صنيعه، أخرج مرآته وضعها أمام وجهه، بينما أشاح بها الفتى بعيدًا، وطلب منه أن يعيدها كما كانت، فصورته التي يراها في نفسه لا يريد أن يبدلها أبدًا مهما رآه الناس في صور شتى، فدعا له الحلاق ووقف ينتظر أجر مقابل هندمته، فأخرج الفتى قطعة النقود من جيبه ومنحها إياه ثم شكره، فرد عليه في فرح:

- الآن.. عليك أن تبحث عن قلب يصعد بك إلى السماء.

- لكن قلبي مازال يتألم.

- سيأتي من يخلصك من الألم كما تخلصت من خصلاتك الزائدة من دون ألم.

لملم الحلاق أشياءه في حقيبته، وحفر حفرةً صغيرة ودفن فيها خصلات شعر "العارف" التي يداعبها الهواء، ثم اختفى في الزحام، بينما أتى الدرويش العابر الذي فاز بقطعة الخبز يملأ الشارع بهذيانه، ويجر خلفه طفلاً صغيرًا يقبض على كسرة الخبز الأخيرة بأطراف أصابعه ويلوكها بعشق ظاهرة، فأخذ "العارف" يتابع المشهد مبتسمًا حتى امتلأ المكان برائحة البخور وتمتمات المسبحين التي انطلقت من مسجد الإمام.

شعر "العارف" بعطش شديد غزا مهجته فانتفض من مكانه يبحث عن سبيل ماء، هرول سريعًا حتى نهاية الزقاق شرقًا فلم يعثر على شيء سوى السراب، فعاد يهرول سريعًا حتى نهاية الزقاق غربًا فلم يعثر على شيء سوى السراب، وظل يهرول، ويهرول حتى قادته قدماه إلى الشارع الأعظم، فطفق ينظر إلى وجوه الناس، ينظر إلى القوارير الفارغة في أيديهم، وإلى جِرار الفخار الخاوية المنتشرة أمام المحال، فظل يبحث، ويبحث، لكنه لا يسأل عابر أبدًا عن شربة ماء، فالعارف يُسأل ولا يسأل، العارف لا يتلقى عطيته إلا من يد الله لا من يد بشر، والظمأ لا يطفئه سوى الماء أو اللقاء ولا شيء آخر سوى الماء واللقاء، وشوق العاشقين لا ينطفىء إلا بالجنة ولا جنة أخرى سوى جنة الله، هرول "العارف" يشق الشارع الأعظم بحثًا عما يُطفىء لهيب مهجته، وبينما هو كذلك اعترضته نتوءات الطريق، فتعثر وسقط أرضًا بعدما نحل جسده، وخارت قواه، لكنه شعر بكف طري يمتد إليه لينتشله من السقوط، رفع رأسه فرأى..

رأى الطفلة الصغيرة صاحبة الرسالة الإلهية تبتسم له وتجذبه بقوةِ رجل فتيّ، فنهض يترنح بجسده يُمنة ويُسرة، شدت على يده ليستجمع قواه، ثم أحنت رأسها على كفه وقبلّته، وأشارت له في صمت نحو سبيل

"قيطاس" حيث الصنابير التي تتلألأ بخرير المياه، اتكأ على كتفها حتى ورد الماء، فتركته ورحلت بعيدًا بعدما أهدته ابتسامة صافية، فأهداها مسبحته الكهرمان، مدّ كفه يغترف من الصنبور حفنة ماء، لكن قبل أن يهم ليطفىء شوقه، أبصر فتاة تملأ جرتها من الصنبور المجاور، فشعر بإرتواء يتدفق إلى عروقه ويملأ الفراغات المشرعة بالألم، ابتسمت له الفتاة في خجل، حتى بانت عيناها الزرقاوين كأنهما بحرًا عذبًا يفيض بالإطمئنان، وأضاء مُحياها حياءً بحلايا العشق، وراتفعت رُوحها تطوف حول مَحياها، فضاقت بها الأرضون بما رحبت، وصارت السماء لهما متسعًا، كانت جرتها قد امتلأت عن آخرها بالمياه، فثقل الحمل وبات يحتاج إلى قوامة الرجال، حاولت أن ترفعه فوق رأسها مرارًا وتكرارًا، لكن الثقل ظل يعاندها فحمله عنها الفتى، وسار أمامها في صمت يدله يقينه إلى منزلها، وقبل أن يطرق الباب خرج إليه "عمران" يستقبله بفرح بالغ، فهلل "العارف" وكبّر حتى امتدت صيحاته إلى مسجد الإمام، فعلا صوت الذاكرين، المسبحين، القائمين، الساجدين، وفاح البخور عشقًا من روعة الوصل.

- إنه لقاء كل شيء يا فتى، فاستقبل العطر واسجد لربك واقترب.

ارتعش "العارف" وتخبطت قدماه، واصطكت أسنانه فرحًا، ووجدًا،

وحبًا، فخر ساجدًا لله شكرًا، تلقفه "عمران" حين قام، وأسدل على كتفيه عباءته البيضاء، فالتفت إليه الفتى قائلاً:

- كل شيء يجري بقدر.. والعشق قدر.

ابتسم "عمران" ابتسامة خفيفة ثم بادره بسؤال يقيني:

- هل عشقت ابنة "عمران" يا فتى؟!

أحنى "العارف" رأسه على صدره خجلاً، فاقترب منه الشيخ، ورفع وجهه بأطراف أصابعه قائلاً:

- العشق مكتوب في الآفاق كما الرزق لذلك هو يأتي من نظرة واحدة.

- هي دفقة حياة يا شيخ، دفقة ميلاد ورحمة يا شيخ.

- الحياة يا فتى تبدأ من نظرة عشق تُغنى عن شربة ماء.

- هل تسمح لي أن..؟

- أبشر.. فسيكون زواجك من "فاطمة" الليلة.

ارتمى "العارف" في حضن شيخه يعانقه، بينما أخذ "عمران" يمسح على شعره، وينظر إلى السماء يستقبل النور الذي امتد إلى الأرض ابتهاجًا.

في غرفة فاطمة كان اللقاء الأول حينما أزاح الفتى النطاق عن وجه زوجته، قائلاً لها بابتسامة رقيقة:

- رأيتك تبتسمين لي في السماء وأنا طفل صغير يخرج ليلاً يستلقي على العشب وينتظر عودة أمه.

- كنت أبتسم لطفل يستلقي على العشب، حينما كنت أخرج ليلاً لأضيء مع النجوم.

- ظللت أحلم أن أصعد إليك في السماء يومًا ما.

- ألم تشعر أنك صعدت إلى السماء بالفعل؟

- إن العشق الذي أبتغيه معلّق في خيط من حرير طرفه في السماء، وطرفه الآخر معلّق بقلوب العارفين، لذلك أنا العاشق الذي يعيش كراقص ملتاع تجذبه النجوم، ويلفه من يسمو على الأرض، فالحجر قد ظلمناه بضرب أمثلة الجمود فلولا عناق ذراته بعضها بعضًا، ما خرج علينا بصورته الصلدة المتماسكة.

- وكيف لي أن أهرب من نار الشوق والبخور لا يفوح عطرًا إلا بالنار؟

- العشق يا "فاطمة" يحمل دلائل الرياح؛ في هدوئه، وعقله، في اضطرابه، وجنونه، في حزنه وفرحه، في دنوه وسموه، وتعلقه بالسماء،

فهكذا هو يدور في أجسادنا منذ نفخه فينا الله، لذلك يجب أن نقدسه، ونجاري ثورته، كما الأشجار.

- العشق يا زوجي يأخذك إلى محب لا يفارقك، ولا أبدًا يومًا يقطعك، بل هو بالقرب أقرب منك كلما اقتربت، وإن ابتعدت شاء لك أن تقترب، فالوصل منه فضل به تنعمُ، ولا يبتغي منك قربانًا به يقتربُ، أو تقتربُ، بل هو القريب في سعتك، وكربك ولا تشعرُ، وهو على كل فعل منك مطلع فسبق علمه رحمة بها ترحمُ.

- العشق هو هدية الله للجسد، فيفنى الجسد وتبقى الهدية، تحلّق نحو الآفاق، فإن طابت، طابت، وطُيب لها المقام، وإن دُنست سقطت إلى حيث ينتظرها التراب، فلا ذكرى تبقيها، ولا جسد يحويها، فتظل حائرة بين تنهيدة، ورجاء.

- وأنا هديتك التي وهبك إياها الله لتهدأ رُوحك وتتخلص من آلامك، فاخفض رُوحك دائمًا كي تصعد، واصعد دائمًا ولا تقاوم، وقاوم دائمًا كي تصعد، اصعد.. اصعد.. اصعد، فستحملك أوجاع زهدك، وانصب لنفسك مأمنًا في الدنيا، لتكون مطمئنًا في الآخرة.

- فالعشق كالماء ،يُمنح، فيمنح، يَمزج، ويمتزِج، يُحتوى، ويحتوي،

يتشكل، ويُشكل، يُذوب، ويُذاب، طاهر، ويطهر، يسكن، ويُسكن،يحدّ، ولا يُحدّ، يُسمي، ولا يُسمى، العشق، يصف، ولا يوصف، ولا مكان لوصف وصفه على الأرض، بل هو نور ينساب إلى السماء، وفي السماء، ومن السماء يرتد سيلاً يتسرب إلى مِهاج العارفين، المسبحين، الساجدين، الذاكرين، الهائمين بين وله وشوقٍ، فلا أياد تحويه، ولا ألسنة ترددده، بل يظل محلقًا فوق الرؤوس لا يطاله إلا من سلم قلبه من سواد، ولمم، لذلك فأنا العاشق الذي يسير في درب طويل بين الخطى، أحصي خطاي، فكم منها يصعد للسماء؟ وكم منها تجذبها الأرضون؟ فلا أجد سوى خطوة تحجل بين الدنا، وخطوة يكبلها العنان، وخطوة حائرة ترتجف بين الوريد، ومشارب الأنفاس.

- ارحل يا "عارف" شق طريقك من هنا.. ابدأ بقلبي واعبر فالعبور آمن، لا تخشَ الإرتفاع، بنظرك لمن فارقتهم، فهم راحلون مثلك، كل إلى حال مصيره المنتظر، وإياك من التعلق بنظرة تثقلك، فقط هي رُوحك التي تجذبك نحو المنتهى، فاصعد.. اصعد.. واسعد بمن يتلقفك في الجنة.

- آآآه يا فاطم آه! فما أجمل العشق الإلهي المفعم بالنور الذي يشع من قناديل الأولياء!

تقدم "العارف" يؤم زوجته في صلاتهما الأولى، ثم أظلمت الغرفة بدُجَّة الرحمة، والمودة، و.. و.. وفي الواو وصل به يصل العاشق صِلاته بصَلاة وأوصال، وفي الواو سفر وعبادة وحياة، فكان الذي بينهما ذمة، وعهدًا، ورحمًا، وصبرًا على غياب يطول في الليل، والآصال.

أضاءت مآذن قرطبة في هذه الليلة المباركة التي وافقت ليلة النصف من شعبان للسنة العارفة التي لا يحسب لها العارفون حسابًا، بينما هم على يقين بقدومه، هم يشعرون بأنه سيخرج إليهم في هذه الليلة، فخرجوا إلى الفضاءات يعلّقون أبصارهم بالسماء؛ لينتظروا رسائل الله التي ستتنزل عليهم عند الساعة العارفة ليلاً فزادوا من ذكرهم، وتسبيحهم، بينما كانت حلقة الدراويش تتسع وتحتدم بالوجد لإستقبال العاشق الجديد، فالعلامات لا تخطىء أبدًا، وأبصار العارفين لا تخونها الأعين، حتى ظهر البشير يطوف بتنورته فوق القباب، ويشير بقلبه صوب المشرق.. بينما كان "العارف" يغتسل في خدر زوجته ويستعد لرحيل بلا طريق، وبلا رفيق سوى الله، ارتدى "العارف" جلبابه، وتطيب بقبلة من أنفاسها، فألقت على كتفيه عباءة أبيها، وملأت كيسه بالزاد، والماء، فمسح دمعة رقراقة دافئة تدفقت على وجنتيها، ونظرة طويلة لعينيها تلاها صمت طويل.. حتى فُضت أطراف أصابعها حينما

طواه الجدار.

في قرطبة توهجت أنوار المآذن وبرقت، ثم انطفأت، وأضاءت السماء بالرسالة المنتظرة، فسقطت كأنها شهاب نور في حلقة الدراويش التي أطبقت عليها كزهرة بيضاء، حتى شهدها العارفون في كل بقاع الأرض فوجلت قلوبهم بالأمنيات، فلكل عارف أمنية كبرى محفوفة بالرجاوات، انفرجت الحلقة بالذاكرين الله.. الله.. الله.. اتسعت.. اتسعت الله.. الله.. الله.. فمن كل زهرة تتفتح ينطلق عارف يسبح باسم الله، فخرج "العارف" من الحلقة يسبح باسم الله، بينما صاح شيخهم بالوجد "هووووو!"، فهدأ الصوت شيئًا فشيئًا حتى انطلقت المنارات، والجبال، والرُبا بالآذان.. فخروا جميعهم ساجدين لله.. وانفتح باب ظنه لن يُفتح.

٦- هووو

عاد الطائر يحلق في سماء قرطبة...

على حافة شاطىء نهر الثلج جلس "العارف" يتوضأ ليلحق بدرس الشيخ الذي أوكلت له الإمامة، والولاية لدراويش قرطبة الذين يسكنون أطلال "الزهراء" لكنهم أخبروه بأنهم مازالوا يبصرون كل شيء على حاله، فألوان البساتين زاهية، وموسيقى الموشحات تعزف من مكانٍ ما كل صباح، بينما يسير كل حكام بني أمية صفًا واحدًا هائمون على وجوههم في الجناح "المؤنس"، يحملون على رؤوسهم قطعًا مطوية من قماشٍ بالٍ، يطوفون بها بلا توقف حول مقام الخلافة الذي يستقر بين اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر، لطيور، وحيوانات، تقذف الدماء من أفواهها إلى الحوض الذي جلبه الوزير "أحمد بن حزم" من الشام، ليناطح بروعته وجماله حوض قيصر القسطنطينية المواجه، لكن لا يجلس أحد على العرش أبدًا، بينما "العارف" ظل لا

يبصر سوى الأطلال رغم زوال الألم من قلبه.

التحق الفتى بحلقة الدرس عند مصب النهر الذي ينتهي بشلال صغير يصب في مكان مقطوع، فقطع الشيخ درسه وكان عن "قانون كل شيء"، ونظر إليه نظرة طويلة تبعها بابتسامة وإيماءة ترحيب،ثم عاد يتحدث عن "الفناء في الله" فأصغى "العارف" لما يقوله "فالماء طاهر لأنه مادة اللامادة ولولا أنه كذلك ما جرت الأنهار، ولا وصلت، وكان التراب بديلاً لنا للوضوء، إن تلك القوانين التي ابتدعها الله من اللامثيل هي التي جعلت من أجسادنا مرمى للبصر." التفت الفتى للدراويش فرآهم يدونون كل شيء على الرمال، فأخذ يقلدهم لكن كلما خطّ خطًا محته الرياح، فأشار درويش إلى قلب الفتى فوضع الفتى يده على قلبه وعاد يخط على الرمال فصار قلبه مدادًا لا يزول، قطع الشيخ حديثه للمرة الثانية ثم نظر للفتى قائلاً:

- أتيت تبحث عن العشق، فاستقبلناك وعلمناك، وآن لك أن ترحل مع النهر.

- النهر يعشق النهايات لكن عشقي لا ينتهي.

- يا فتى.. أنت كقطرة إذا استُبيحت أُهدرَتْ وإن أُكرِمَتْ قامت بها

حياة.. فلا رفيق لك إلا "هووو" فارفق بنفسك ورافقها، لأن بها تنجو يوم تفر الأنفس، وازهد أجسادًا خلقها بها زوال وتعلّق بأطراف نوره حتى بها تصعد، فبين ثنايا رُوحك والسماء أمشاج نور تحملك إلى مستقر فيه تكون قمرًا يضيء لمن أبصر، فتلك الأضواء التي تبهرك ما هي إلا ظلام يخدعك، فاغضض الطرف عن بريق زائل واستقبل النور، ففي قلبك تسكن أمة فلا تخشَ كل تلك التناقضات التي تحزنك لأنك ممزوج بالخير، ولا تلتفت خلفك لمن يناديك دائمًا فربما الصوت يأتيك من السماء.

تنهّد "العارف" تنهيدة انتفض لها الدروايش، وبدأ المسبحون يتمايلون وجدًا،و ولهًا، وذكرًا، نسجوا حلقة العشق، الواحد تلو الآخر، فصاروا كحبات تُنسج، وتُعقد في مسبحة ناسك.. الله.. الله.. الله.. فرفع الفتى رأسه نحو قصر "الزهراء" فرآه بألوانه الزاهية، وبساتينه الفيحاء، وجداوله الجارية، بينما وقع بصره على حلقة دراويش أخرى يتوسطها قنديل يضيء في وضح النهار فظل الفتى ينظر إليهم، وإلى المجلدات الضخمة التي يحملونها بين أيديهم، ثم انتقل ببصره إلى حلقة الذكر والدراويش المتمايلون الذين صهرهم العشق، فتقدم نحوه الشيخ يشاركه التأمل، ثم تحدث إليه قائلاً وهو يشير بسبابته للحلقة

البعيدة:

- هؤلاء علماء قرطبة جاءوا يرحبون بك ويهدونك قنديلهم الذي لا ينطفىء ليكون رفيقك في رحلتك.

وقف الفتى ثابتًا مقاومًا للذهول، والكبر، فخفض رُوحه رضاءً لهم دون أن ينطق بكلمة واحدة، فأردف الشيخ قائلاً في فخر، وهو يشير إليهم الواحد تلو الواحد:

- أبصر يا بُنَي فهذا ابن مسرة، وهذا ابن رشد، وهذا ابن ميمون، وهذا ابن حزم، أما هذا فابن عبد البر، جواره يجلس الباجي، وعن يمينه القرطبي، أما عن يساره فيجلس الزهراوي، أبصر يا فتى أبصر.. هيا افتح قلبك لهم واستقبل النور.

ارتفع القنديل وأخذ يدور.. يدور.. يدور، توهج النور.. توهج.. توهج، جذب العلماء جميعهم.. زاد من دورانـه.. زاد.. زاد.. انطلق في السماء.. ارتفع.. ارتفع.. ارتفع ثم هوى في صدر "العارف" فارتفع صوت الدراويش بالذكر الله.. الله.. الله.. صاح الشيخ "هووو"، فاختفى الشيخ كوميض، اختفت الدراويش، اختفت قرطبة كلها، وبقي نهر الثلج وحده يشق الأرض، ويجري نحو المصب. تدفق "العارف" مع

مجرى النهر لم يكن يبحث عن مدينة أخرى يسكنها شيخ آخر، بل كان يبحث عن نفسه، عن كيانه، عن وجوده، عن بذرة خلقه وطينها، فحاله من حال النهر الذي يبحث عن نهاية يستجير بها من نهم الرمال، بينما هو لم يكن يبحث عن نهاية، فالعارفون لا تشبعهم النهايات لذلك قرر أن يتوقف فجأة ويغير مساره ليخالف مجرى النهر، فتيار المياه لا يطاوعه إلا الموتى، فسار ببأس داود، وبيقين يوسف، وبعزم أيوب، وبأوبة يونس، وبرجاء إبراهيم، وبلهفة موسى، وبفضول إدريس، وبأمل يحيى، فأخذته الأرض أخذًا، وحل في الطين، وطأ حرارة الرمال، وداس قهر الصخر، وقساوة الجليد، سار على السهل، والوعر، حتى استقر به الحال على قمة جبل صخري شديد السواد، رأى العالم كله من تحته ترابًا، ومن فوقه تراب، فتراب على تراب تلك هي الدنيا، بنى الفتى لنفسه كوخًا من العشب، وانتوى صيامًا وتسبيحًا، وصلاةً، وقيامًا، وتسليمًا كثيرًا، فكان وحده مع "هووو"..

وحده مع "هووو".. وحده مع "هووو"، فشعر بشبع من جوع، وارتواء من عطش، وبراحة من ألم، حتى جاءت الليلة السابعة التي أغمض فيها عينيه عن نور يراه، فرأى في قلبه قنديلًا يبزغ منه نور يطوّقه، ويهديه الطريق دون أن يسقط أو يتعثر، فرأى أمه تجلس هناك في

السماء مطمئنة تأكل من حبات الرمان، أما أبوه فقد رآه في غياهب السجن وحيدًا يرسم وجه طفله على الجدران، ويداعب عرائس "الماريونيت"، فمدّ الفتى يده يربت على قلبه فابتسم، وراح يرسم طفله على الجدار شابًا يافعًا بملابس العارفين، التفت الفتى إلى "فاطمة" فرآها تذوب في ألم المخاض، فارتعش.. لكن يد أمه كانت تمتد إليه تعانقه وتضمه إلى صدرها.. فثبت حينما آتاه صراخ ابنه "هارون" يخرج رحم من السماء، فهكذا رأى وهكذا سمع، فالتفتت إليه "فاطمة" تبتسم، فابتسم.

ولما كانت الليلة الأربعون من السنة العارفة خرج "العارف" من خلوته، فسقاه الله من مطرٍ وأطعمه من شجرة نبتت وحيدة في صخر الجبل، فحمد، وشكر، ونظر إلى السماء حتى امتد بصره إلى الطائر الذي كلما حلق عاليًا ارتفع، فأيقنه رُوحًا تواقة تحرسه، وتنقل أخباره إلى من ينتظر، فهو دائمًا العاشق المُنتظر، تنتظره "أسماء" في تكيتها ليكمل لها آخر صفحات الكتاب، تنتظره "فاطمة" في خدرها ليطعمها ويسقيها، ينتظره ابنه "هارون" ليشد من أزره ويعطيه، وينتظره "العطار" ليخلط العشب بالعشب ويصنع له دواءً يشفي القلوب، وينتظره "الخباز" ليشكل عجينته ويُنضج رغيفه ليُشبع الجوعى،

وينتظره "المريدون" في مسجد الإمام ليمدهم بيقين المقام، وينتظره "الدراويش" ليعقد حلقة أقاموها بالذكر، وينتظره "عمران" ليعمّر بيته بالحياة، أما "العارف" فلا ينتظر سوى "هووو".

هبط الفتى يسعى في الأرض، فأبصر مدينة تلوّح من بعيد تضمخ بالأضواء، لكنه كلما تقدم نحوها ابتعدت، وكلما أعرض عنها اقتربت، فافترش عباءة "عمران" وجلس عليها بعدما عاندته المسافات، وتجمدت من تحت قدميه الأرض، فأتاه عابر يمتطي ناقة صفراء شرد عن قافلته فضلَّ طريقه، فسلم عليه، وأرخى ناقته وهبط يجلس جواره ويسأله عن طريق ينجيه من الصحراء، فأشار "العارف" إلى المدينة التي يتلألأ ضوؤها في الظلام علّه يصل ويجد ضالته، فنظر إليها عابر السبيل وهزّ رأسه وتحدث بلهجة ساخرة:

- يا أبا "هارون" إنها الدنيا التي كلما أعرضت عنها أتتك راغمة.

- سألت فأجبت بما عرفتُ، فعرفتني وعرفتها.

فأشار عابر السبيل إلى أعلى بينما كان يستعد لإمتطاء ناقته قائلاً:

- ما بين قلبك والسماء طريق لا يسلكه إلا أنت فبدد السواد، واركض برجلك نحو المُرتجى الأبدي.

- مازلت أنتظر حتى يُفتح لي.

- استفت قلبك.. فليس كل النور حقيقة.

ردد الشيخ هذه الكلمات ثلاثًا، ثم اختفى في الظلام، فالتفت الفتى إلى المدينة التي يصعد منها الضوء والدخان، ثم أعرض عنها فخارت في الرمال كأنها لم تكن.

استلقى "العارف" على عباءة "عمران" فنبتت حوله مدينة أخرى من رُوحه العاشقة، لكن قواعدها ظلت تحلق بعيدًا عن الأرض، فسار الفتى يحملق في كل شيء، بل يشعر بأن هناك من ينتظره في مكان ما، فكانت البيوت من فخار، الأرض من فخار، الناس من فخار، الجدران، الشوارع، المحال، البضائع من فخار، إنها خلطة الحياة "الماء، والطمي، والرُوح"، وبينما هو يتفرج، ويتجول هنا وهناك نادته امرأة عجوز تجلس على "الدولاب" تشكل إبريقًا بأصابعها المجعدة، فتقدم نحوها وقبل أن يتحدث إليها، تحدثت هي بصوت متهدج رصين وهي تشير إلى الإبريق بأصابعها:

- من هذا الإبريق شرب الإمام يا بُني.

- لكنه ما زال طينًا يتشكل بين أصابعك يا جدتي.

- كل شيء يعود للتراب لكن عليك أن تعرف سر التراب.

- لست فخاريًا لأعرف هذا السر.

- كلنا من فخار يا فتى، لكن هناك من يتشكل بأصابع الدنيا وتسويه النار، وهناك من يتشكل بأصابع العارفين ويسويه العشق، وهناك من يتشكل في السماء وتسويه الرُوح، وهناك من يتشكل باليقين ويسويه النور.

- آآآآآه! يا جدتي لو أنني أمتلك كل تلك الأسرار.

- بين شاطئي الجسد أنت مسجون، وما الجسد إلا محنة كبرى، فابرأ منه بعصيانه، وأسلم رُوحك لكل جميل.

كانت المرأة قد انتهت من تشكيل الإبريق، فحملته بين أيديها وناولته للعارف قائلة:

- انفخ فيه يا فتى ليستوي برُوحك العاشقة.

قبض "العارف" على الإبريق بكلتا يديه وأخذ ينفخ داخله فدار الدولاب، توقف الفتى فتوقف الدولاب، عاد الفتى ينفخ بقوة فدار الدولاب بقوة، أخذ الفتى ينفخ وينفخ، وينفخ فدارت النواعير في الحقول، دارت الأراجيح بالأطفال، دارت الأرض، والكواكب، والرياح، والنجوم، دارت

البحار، والمحيطات والأنهار، دار النور يلاحق الظلام، دار الحق يلاحق الظلم، دارت الحياة تلاحق الموت، دارت الدماء في أجساد العباد، دار الدراويش بالتسبيح، دارت الحلقات بالذكر، وطُرحت التنانير بالرقص تدور، تدور، تدور، حتى فاحت رائحة البخور من المقام تدور، علا صوت الآذان يدوي ويدور، الكل يدور.. يدور.. يدور.. الله.. الله.. الله.. صاح الشيخ "هووو!" فخرّوا جميعًا ساجدين، فدارت الأرض بمن عليها.. اختفى الإبريق من يد "العارف"، اختفت المرأة، واختفت المدينة كلها وبقي "العارف" يجلس وحيدًا يفترش الصحراء بعباءة "عمران" البيضاء.

عاد "عابر السبيل" يمتطي ناقته الصفراء من الظلام يسأل "العارف" عن قافلته التي شردت بعيدًا، فأشار الفتى إلى السماء، فابتسم "عابر السبيل" قائلاً:

- وأفهمناها إياك يا فتى.

- القافلة هناك في السماء.

- حلِّق.. تلحق دائمًا بمن تُحب، وهب رُوحك لمن مِن روحه وهُبت، فكل ما هو منك عائد إليك.

- العشق يا رجل لا عودة منه إلا إليه.

صفع "العابر" ناقته صفعة خفيفة فانطلقت تعدو، وتنثر خلفها نجومًا أضاءت في ظلام الصحراء، ثم التفت إلى "العارف" قائلاً:

- انظر يا فتى إلى تلك النجمة الكبيرة التي تؤم النجوم هناك.

احتفظ "العارف" بِصَمته بينما كان يمدّ بصره بعيدًا حتى ينتهي الرجل من كلامه:

- كي تصل إلى أمنيتك الكبيرة لابد وأن تطأ تلك النجوم الصغيرة بقدميك.

- مازال الطريق طويلاً جدًا يا رجل.

- ابحث عمن يحملك يا فتى وستصل سريعًا.

ردد "العابر" هذه الكلمات ثلاثًا ثم اختفى في ظلام الصحراء، بينما أشرقت الشمس لتضيء نصف الأرض، ولكنها ما أشرقت، وما يُشرق الكون إلا بنور الله، وإن أشرقت الشمس سبعين ألف مرة فإنها ما أشرقت، وإنما هي كل يوم تخوض رحلة اغتراب حتى يُؤذن لها أن تعود إلى نارها الأولى، نظر "العارف" إلى السماء يناجي الله،

ويسأله طيب الرحلة، وهداية الطريق، ثم صلى ركعتين قبل أن يقوم من مقامه، قام الفتى وطرح العباءة فوق كتفيه، وسار حتى عاد النهر يجري من جديد يرافقه في رحلته، لكن يقينه كان مازال يحدثه أن يسير في اتجاه مخالف لتيار المياه، فالموتى فقط هم من يطاوعون مجرى النهر، أما من يبحث عن العشق هو حي يُرزق، يعيش، يقاوم، يدب بقدميه في الأرض، ويترك خلفه علامات للطريق لمن سيمر من هنا يومًا ما، اغترف الفتى غرفة بيديه من ماء النهر وشرب، ثم جلس على الشاطىء يتابع الزبد الذي يذهب جفاء، فشعر بالعابر يقف خلفه يتأمله، ويراقب تحركاته، فتحدث دون أن يلتفت إليه:

- أتعلم يا "شمس" لولا عطرك ما علمت بقدومك.

- أما وقد عرفتك وعرفتني فهل لي أن أسألك؟

- أتيت لأُسأل ولا أسأل.

- هل جمعت من أسماء العشق شيئًا؟

- للعشق ستون اسمًا من أحصاها صار ملاكًا طاهرًا جمعتُ منها المحبة، العلاقة، الهوى، الصبوة، الصبابة، الشغف، المقة، الوجد، الكلف، التتيم، الجوى، الدنف، الشجو، الشوق ،الخلابة، البلابل،

التباريح، السدم، الغمرات، الوهل، الشجن، اللاعج، الإكتئاب، الوصب، الحزن، الكمد، اللذع، الحرق، السهد، الأرق، اللهف، الحنين، الإستكانة، التبالة، اللوعة، الفتون، الجنون، اللمم، الخبل، الرسيس، الداء، المخامر، الود، الخلم، الغرام، الهُيام، التدلية، الوله، التعبد، وأنا، وأنت، وهي.

- وهل جمعت شيئًا من البغض؟

- لا أجمع إلا ما ينفع الناس.

- وما رأيك في قواعدٍ وضعتها للعشق؟

- لقد ضيَّقت واسعًا بقواعدك الأربعين يا شمس!

- أعثرت على العشق يا فتى؟!

- العشق كنقطة في بحر تنبثق منها كل الخطوط، ولكل خط لغة، ولكل لغة حرف، والحرف من نقاط، ولكل نقطة بحر، ولكل بحر عاشق، ولكل عاشق صلاة، ولكل صلاة أمانيها، ولكل أمنية عارف، ولكل عارف رحلة، ولكل رحلة طريق، ولكل طريق علامات، ولكل علامة يقين، ولكل يقين عائد، ولكل عائد غاية، ولكل غاية نهاية، ولكل نهاية بداية، ولكل بداية قلب، ولكل قلب باب، ولكل باب نور، ولكل نور قنديل، ولكل قنديل

خادم، ولكل خادم دعاء، ولكل دعاء رجاء، ولكل رجاء قدر، ولكل قدر كتاب، ولكل كتاب ملاك، ولكل ملاك سماء، ولكل سماء لون، ولكل لون صفة، ولكل صفة موصوف، ولكل موصوف واصف، ولكل واصف مثل، ولكل مثل خالق، ولا خالق إلا "هووو".

- عظيم يا أبا هارون.. ومتى ستعود إلى بيتك؟

- العودة من رحلة العشق سفر طويل، ولكن ليس للعاشق عودة إلا لعشق، ولا عودة لعشق إلا لعشق، ولا عشق يأتي إلا من عشق، ولا عشق يُعشق إلا لعشق، فيعشق العاشق ليعود إلى عشقه عاشقًا ومعشوقًا، فالعشق بيت لا رحيل منه.

- أصبت! فالعشقُ أوله عودةٌ، وأوسطه شوقٌ، وآخره قبولٌ.

- إذا عشقتْ القلوب لانَ فيها ما قسى، واقترب منها ما قصى، فنأنس بالله من وحشة الأرض.

أنهى "شمس الدين" أسئلته ورفع رأسه وفتح يديه للسماء، وصاح بصوت ملهم:

- يالله!

اختفى "شمس" كوميض مع مجرى النهر، أما "العارف" فأكمل مسيره

نحو المنبع، فالنهر خط مظلم يشق الأرض، يوازيه خط لامع يشق السماء، والعاشق مثل النهر يتدفق على الأرض، وينعكس شوقه في السماء، لكنه لا يرتد ظلاً أو ضوءًا مخبولاً يدقون له الطبول ليرحل، وإنما يرتد حيوات رائعة تشع من كواكب درية تضيء للعالمين.

كانت السباع تحيط بـ"العارف" من كل مكان، لكنه لم يعبأ بها، ولا بوحشيتها، ولا بأنيابها التي تلمع تحت آشعة الشمس، لم يكن في غابة الأشجار التي انبثقت فجأة يشطرها النهر حيوانًا أليفًا، حتى الطيور التي تحلق في السماء كانت جميعها جارحة، بينما لم يجد بد إلا أن يتوضأ من النهر، ويفترش عباءة "عمران" ويدخل في الصلاة ليكون في حماه، لكن السباع كانت تحكم الحلقة حوله حتى أنه لم يتبق له سوى مكان لركوعه، وموضع للسجود، بينما زاد تحليق الطيور الجوارح في السماء، لم يرتجف الفتى ولم يخفق قلبه، فأغمض عينيه في سجوده فانفتحت أمامه طاقة نور رأى فيها ابنه "هارون" يمتطي فرسًا ويشهر سيفًا ويقف على جسر بين عالمين يجري من تحته نهر من دماء.

أخذ الفتى الصغير يضرب بسيفه يمنة ويسرة وبينما كان يتساقط حوله جنود من فُرس، وروم، أتى قائدهم وطعنه برمحه طعنةً نافذة من الخلف، فصاح الفتى صيحة انتفضت لها الجبال قبل أن يسقط

من فوق فرسه تأكل منه الطيور والسباع حتى اختفى في حواصلها، لكن ظل قلبه يبرق تحت ضوء الشمس، انطفأت طاقة النور حينما سقطت دمعة دافئة من عين "العارف" في غياهب القلوب دار حولها كل شيء، فنهض من سجوده ليرى السباع تدور من حوله بينما انطلق الصوت يتردد من خلف الجبال الله.. الله.. الله.. فخرَّ الفتى ساجدًا لله، فانفتحت الطاقة أمامه فرأى فيها ابنه "هارون" يجلس في حِجر "عمران" يتذوق أحرفه الأولى من القرآن أن "الحمد لله رب العالمين" فاطمأن قلب الفتى وسكن، واستكان، فقام من سجوده ليرى الدراويش يلتفون حوله في مسجد الإمام، وأتى الصوت يتردد من خلف المقام الله.. الله.. الله.. فانتفض يتمايل معهم في زهوة الوجد.. حتى انصهر، وذاب، وفنى في الله، وعاد النهر يجري يرافقه في رحلة عشق لم تنتهِ وما لها من نهاية.

توقف "العارف" أمام النهر حينما رأى أربعة فتية يتسابقون بأن من يلقِ قلمه في النهر ولا يجرفه التيار، يفز بثمرة رمان سقطت عليهم من السماء، ألقوا بأقلامهم ووقفوا يترقبون، فثبت قلم أوسطهم لم تجرفه المياه، ورغم أنهم أعادوا السباق ثلاث مرات إلا أنه هو من فاز بالرمانة، ولكنه قبل أن يهمّ بأكلها قسمها بينهم قائلاً:

- كل حبة منها هي حبة فردوس فاجعلوا لأحبائكم نصيب.

نظروا للحبات التي تتلألأ في أيديهم كما العقيق، وتناول كل واحد منهم حبة، فأغمضوا أعينهم ورفعوا رؤوسهم للسماء إنتشاءً، ثم صاح واحد منهم وكان مازال يحتفظ بعينيه مغمضتين:

- إنه هنا.. أراه أمامي الآن.

تقدم للأمام، عاد للخلف، مشى يمينًا، مشى يسارًا، دار حول نفسه دورتين، ثم فتح عينيه وأشار صوب "العارف" قائلاً بلهفة:

- أنت العاشق سر الرمان !

- تعانقت حبات الرمان لتمنحنا حلاوة الحب يا بني.

- ألقينا أقلامنا في النهر للفوز بها لكننا خسرنا وفاز صاحبنا.

- ثُبت قلمه في النهر لأنه تمناها لكم وله وانجرفت أقلامكم مع اللمم.

- لقد رأيتك في الدُجَّة تعصر في فمي حلاوة فارتفعتْ رُوحي ارتفاعًا.

فصاح الفتية جميعهم بلهفة حينما فتحوا أعينهم الواحد تلو الآخر يستقبلون النور:

- أنت العاشق سر الرمان.. أنت العاشق سر الرمان..

جمع "العارف" الفتية حوله، وأخذ يطعمهم الحب بيديه، ثم أشار لهم ناحية النهر المتدفق وقال في شرود:

- الماء يقطع آلاف الأميال، يدور، يرقص، يعلو، يسقط، يستقيم من أجل الظمآى، الماء من أجلنا يتحمل كل المذاقات ولا طعم له، الماء يمزج كل الألوان ولا لون له، الماء منه العطر ولا رائحة له، الماء يحترق في الأرض، ثم يهبط من السماء مطرًا يُطفىء الغُلة والنار، ويحمل عنا الهموم والأثقال، الماء هو الأشجار، الحيوان، والنبات، الماء أنا وأنت، الماء يشاركنا الحياة والطهر، والعطر، والمذاقات.. فيُغير ولا يتغير.. الماء وصل يا أبناء.. الماء عشق.

قام الفتى الفائز من مكانه ونزع من الأشجار أقلامًا جديدة وزعها عليهم، فأخذوا يدونون ما علمهم إياه "العارف" على ألواحهم، فنظر إليهم يتفحص وجوههم، بينما كانوا منهومين في تسجيل كلماته، وابتسم ابتسامة استجمع فيها كل ذكريات حرمانه، فهو الطفل الذي حُرم من استكمال تعليمه، وهو الفتى الذي حُرم من تمثيل أدوار أمام جمهور مخبول، فسقطت منه حرباء أبت أن يطوعها في دور ثانوي، أجبره عليه مخرج متسلط أراد أن يحرمه من حلم سعى إليه، وها هو الآن يمنح الآخرين ما حُرم منه، وما أُوتي من علم إلا من عند الله، كان

الفتى الفائز هو أول من انتهى من التدوين، فرفع رأسه قائلاً:

- زدنا من علمك يا شيخ.

لكن قبل أن يهمّ "العارف" باستحضار فكرة جديدة أبصر "شمسًا" يقف على الماء يمسك قلمًا ولوحًا ويترقب، يترقب إلهامًا، وعلمًا، فقام الفتى من مقامه ومدّ قدمه في النهر وبيقين العارفين حمله الماء، خطا "العارف" خطوته الأولى في النهر باسم الله، وأمره فكان الماء له سبيلاً، مدّ الفتى بصره نحو الشاطىء فرأى على جانبيه المسبحين، الذاكرين، الهائمين صفًا واحدًا يتمايلون كحبات لؤلؤ في عقد يتدلى من جِيد السماء، فتقدم نحو "شمس" وتوقف أمامه قائلاً بلهجة المتعجب:

- أتيت "مولانا" بعد أن انتظرتك أربعين عامًا، لكنني لم أنتظرك يومًا واحدًا وتأتيني.

- انظر إلى وجوه طلابك وسترى ما أتيت لأجله.

التفت الفتى إلى طلابه على الشاطىء فرأى في وجوههم ابنه "هارون" يبتسم ويلوح له بقلمه من بعيد، فوجل قلبه، وانتفض، فلم يقوَ الماء على حمله، وأخذه إلى القاع، فمدّ "شمس" يده وانتشله سريعًا من

الغرق، ثم جذبه نحوه بينما كان يتنفس الفتى الصعداء:

- سيخدعك متاع الدنيا لينزعك من الطريق فأسلم رُوحك لكل جميل.

- يا "شمس" أتيتني لـ..

- أتيتك لأنك انتظرتني أربعين عامًا.

- لم أبلغ الأربعين بعد!

- ستقضي عمرك تنتظرني مهما أتيتك.

- أتيتَ "مولانا" بسر العشق أما أنا فمازلتُ أبحث.

- وإن بلغتَ السر صرتَ سرًا لغيرك.

غاب "شمس" مع مجرى النهر وهو يردد هذه الكلمات، فخرج "العارف" إلى الشاطىء وجلس وسط طلابه يعلمهم حرفًا جديدًا، حتى جن الليل يغزل خيوطه السوداء بين فروع الأشجار، فرفع "العارف" رأسه إلى القمر فأبصر فيه "فاطمة" تجلس في خدرها تغني له أغنية العودة، فشعر بأن فؤاده قد امتلأ باليقين، فوضع يده على صدره، وتحدث إلى طلابه قائلاً وكان مازال يعلق بصره في السماء:

- في قلب كل واحد منكم يسكن عارف يتدبر، يعقل، يفقه، يعشق،

يطمئن، يرى، يرقص، يعبر، يصعد.

استدار "العارف" إلى طلابه فوجدهم قد ذهبوا إلى نوم عميق، دثرهم بعباءة "عمران" ثم عاد ليطالع وجه "فاطمة" الذي جاء يطل عليه من القمر، فالقمر رسول للوجوه الطيبة، والقلوب، والعشاق، القمر عاشق يدور حول الأرض، القمر نافذة صغيرة تطل منها الملائكة فترى وجوهنا جميعًا ونحن نتطلع إلى السماء، ونافذة كبيرة للعارفين يتطلعون منها على السماء، فتطلع ""العارف" في النافذة فرأى وجه "أسماء" يبتسم.. فابتسم.. حتى غاب خلف سحابة عابرة، ثم عاد القمر يرسل إليه وجه "فاطمة" تغني له أغنية العودة، فدندن الماء على وقعها، وانهمر النهر، التفت "العارف" إلى طلابه فتفاجأ بإختفائهم.. بحث عنهم يمينًا، ويسارًا وعلى مجرى النهر، وخلف الأشجار، هرول صوب عباءة "عمران" ورفعها سريعًا فوجد تحتها حبة الرمان مكتملة، فشهق بالوجد عارفًا وصاح.. يالله! فانفتح باب خامس ظن يومًا أنه لن يُفتح، فعلا صوت الدراويش في كل البقاع.. الله.. الله.. الله.. دار الفتى بجسده.. دار.. دار ثم خرّ ساجدًا.

٧- نورٌ ومرآة

تسلل النور إلى تِكيّة "عمران" من ثقب ضبطه الشيخ في الجدار ليستقبل به شعاع الشمس الأول، بينما لم يكن الوقت يتوافق مع الشروق فالعتمة مازالت تنشر أنفاسها في كل مكان، قطع "عمران" درسه وأخذ يتابع الشعاع الذي طوّق الغرفة، فوضع طرف إبهامه على الثقب ليحجب النور لكنه لم ينقطع، فأيقن أنه ولي من الأولياء جاء يعلّمه، فعاد يجلس وسط طلابه يطالع النور الذي استلقى على مقعده، وأخذ يترقب الكرامة التي أرسلها الله لتُعلي مقامه، وتكتب له برهانًا جديدًا يُجلي قلبه، وبينما هو على هذا الحال انفتح باب الغرفة، لكنه لم يلتفت إلى وقع الأقدام التي تقترب من مجلسه؛ فالنور يأخذه عن كل شيء يحجبه عن النور، جلس القادم إلى جواره في صمت، بينما خفت النور شيئًا فشيئًا وغادر المكان، لكنه أحدث أمرًا في قلوبهم جميعًا، فعاد "عمران" يتربع في مقعده ويواصل درسه دون أن يتوقف

على ما حدث، ودون أن يتلقى سؤالاً واحدًا من أحد طلابه وكأن شيئًا لم يحدث، أو أنه شيء اعتيادي يحدث كل يوم أو كل لحظة، لكن ما وقع عليه بصر "عمران" وسط طلابه كان غريبًا، ومفاجئًا فعودة المحبين يصاحبها نور لا يحجبه حاجز أو حائل، فأشرق وجه الشيخ حينما رآه، رأى "العارف" فهمّ أن يبرح مقعده ليُجلسه مكانه، ولكن الفتى أشار له بيده أن يكمل درسه ولا يقطعه، فردّ "عمران" ظهره للخلف وأخذ يتحدث بشرود عن "النور والمرآة"، فسأله مُريد:

- وماذا عن نور يشع من العيون يا شيخ؟

- هناك من العيون الطيبة ما تفيض بالبريق لكنها نوافذ نطل منها على السماء.

- وماذا عن الأجساد؟

- وما الأجساد إلا مرايا تعكس نورًا، فكلما صفي القلب زاد النور توهجًا.

- من أجل ذلك لا نرى الملائكة؟

- وهل لمرآة أن ترى النور يا بُني.

- وماذا عن نور الأولياء؟

- صفت قلوبهم فاصطفاهم ربهم نورًا فخشوا نوره.

- وهل لنا من نور الله نصيب؟

- لولا تمام نوره لأظلم الكون كله وما رأينا أنفسنا مهما أضاءنا من القناديل.

وبينما "عمران" عاكف في مجلسه يُسأل ويجيب قام "العارف" من مقامه وسار في هدوء ناحية الباب دون أن يشعر به أحد، فتح الباب على مهل فرآه غلامًا يافعًا، رأى "هارون" في صحن الدار يحمل عن أمه جرة أثقلها الماء، فسارت "فاطمة" خلفه بوجه شاحب، وبجسد نحيل تردد أغنية العودة..

سترجع يومًا إلى قلبها..

سترجع وإن طال الطريق..

بعشق، وعطر، وسنبلة..

سترجع أخبرني العزيز القدير..

لتحمل قلبًا أثقله الغياب..

تقدم "العارف" نحوها بخطى حثيثة، وبقلب جميل ربّت على كتفها

فالتفتت إليه ببطء شديد، طالعت وجهه، ثم استدارت تردد أغنيتها بعد أن ظنته خيالاً جاء يداعب شوقها، فلحق بـ"هارون" وحمل عنه ثقل الماء، فتوقف الغلام يتحسس وجه أبيه، تحسس قلبه، وأخذ يشتم أردان جلبابه، ثم حدّق في وجهه طويلاً، بينما كانت "فاطمة" لا تزال تردد أغنية العودة، فصاح الغلام وهو يرتمي في أحضانه وخرج الصوت منطلقًا من فرط العناق:

- أبي!

أفاقت "فاطمة" من شوقها على صوت الفخار حينما هوى من يد زوجها يعانق الأرض، لكن شيئًا لم ينكسر، تسمّرت في مكانها ولهًا، ووجدًا فأشرق وجهها، وعادت الدماء تدور في عروق جمّدها الفراق، ثم جثت على ركبتيها، وخرّت ساجدة لله، فحملها "العارف" وصعد..

في خدر "فاطمة" أسند "العارف" رأسه على راحة يدها، بينما كانت تنحت ملامحه بكفها الآخر، ثم تحدثت بدلال افتقدته طويلاً:

- أعثرت على العشق؟

فحصر "عارف" وجهها بين كفيه قائلاً:

- العشق يبدأ من هنا يا "فاطمة".

- لا ترحل فـ"هارون" يحتاج إليك.

- "هارون" مرآة لي ولك، هارون صار دعاءً لكلينا يا "فاطمة".

وبينما هما يتناجيان استأذن "عمران" في الدخول فمنحه "العارف" ما أراده، دخل الشيخ يحمل كتابه، وعمامته الخضراء، فنظر الفتى إلى ما يحمله دون أن يعلّق، فـ"عمران" لم يكن ما يشغله هو الترحيب بعودة "العارف" لأنه ربما كان يرافقه رحلته ويعلم عنه كل شيء، وربما أن أخباره كانت تأتيه مع رسولٍ ما قبل أن يبرح مكانه؛ لذلك لم يكن شوقه يسبق رغبته، وعلى الجانب الآخر بادله "العارف" المشاعر ذاتها وكأن لقاءً كان يجمعهما دائمًا ولم يكن الفراق يعرف لهما سبيلاً، فلم يهتم إلا بما جاء يطلبه، لذلك ظل الفتى ينتظر شيخه حتى يتحدث، فناوله الكتاب والعمامة بإبتسامة حانية قائلاً:

- لا يجتمع عارفان في المدينة يا بُنَي.

- كنت أشعر بك طوال الرحلة.

- عليّ أن أرحل وعليك أن تستقبل الدراويش والمريدين.

- سيحزننا رحيلك يا شيخ.

- رحيل من رحيل إلى رحيل ثم عودة إلى السماء.. تلك هي الحياة.

تقدم "عمران" صوب ابنته وقبلها من جبهتها فقالت له والدموع تترقرق من مقلتيها:

- هي فرحة يتبعها حزن.. ولقاء يتبعه فراق يا أبي.

- كلما تجبرت آلام الفقد انظري إلى وجه "هارون" فهو مُلتقانا.

أمسك الشيخ بالعمامة وتوّج بها رأس "العارف"، ثم ربّت على كتفه، وشدّ على يده، ثم علّق كيسه في كتفه، واتكأ على عصاه ورحل بعد أن مسح كل شيء بنظرة وداع، بينما وقف الفتى يتأمل خطواته التي تبتعد فهو على يقين بأن شيخه لن يعود إلا كشعاع من نور يطل عليهم من حين لآخر ليطمئن قلبه، ثم يرتد نورًا حيثما كان، فلكل رحلة نهر، ولكل رحلة شمس، ولكل شمس مرآة، وطرق العشق لا تنتهي إلا بطريق يتبعه طريق من طرق لا تلتقي إلا في قلوب العارفين، ومهما طوتك الأرض، وتقاطعت بك الطرق فإنك لم ترحل بعد، فالرحيل لا يكون إلا للسماء، ومهما تقاطعت الأقلام والأحرف والكلمات فالعالم هذا الشاسع كله فكرة واحدة، فعقل يفكر، وقلم يكتب، وحبر ينفد، وأوراق تتراكم، وعارف يرحل وعارف يعود، وعارف يُولد، وعارف يصعد، وعارف يُسأل، وعارف يجيب، ونور من نور، فوق نور، من تحته نور، عن يمينه نور، ومن شماله نور، وما كل أنوار الأرض والسماء إلا انعكاس لنور أكبر

يحمله ثمانية، وما حملوه، وما رفعوه بل هو وحده يعلو كل شيء، فإن ساورك شك فارفع كفيك إلى السماء كي تحملها عنه.

جلس "العارف" في حجرة الدرس يتأمل وجوه طلابه ويضع على رأسه عمامة "عمران"، وينشر أمامه كتابه، ثم بدأ باسم الله الأعظم، وكانت الليلة هي ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من السنة العارفة، فنظر إلى الثقب الذي تسلل منه نور في الجدار ثم التفت إلى طلابه قائلاً:

- خلق الله نور رحمته قبل خلق الخلق فكان اسمه على ساق العرش شاهدًا ومشهودًا فظل لآدم شفيعًا من خطيئته ولأمته شفيع يوم يرتجي كل منا نفسه وينسى كل الأنفس، وما خُلق آدم إلا من أجله فاستحى الظل من نوره فكان في السماء ممدودًا، صلوا على خير البشر وليس بمثلهم فبها نهر أنقى من اللبن وأحلى من العسل صلوا عليه وسلموا تسليمًا.

ضجت حجرة الدرس بالصلاة والتسليم وبصرير الأقلام التي انهالت على الألواح بالتدوين، فابتسم "العارف" واطمأن، حتى أتاه صوت المسبحين، الذاكرين، الحامدين، الهائمين من مسجد الإمام، فقام الشيخ من مقامه فرُفعت الأقلام وأقيمت الألواح، وانفرج طريق شقه

على وجل حتى وصل إلى ساحة المسجد، التفت إلى الدراويش الذين كانوا في انتظاره، فابتهجت وجوههم وعلت صيحاتهم، وزادوا على النار بخورًا فتأرّج العطر يعلق بالهواء، يرسل للهائمين رسائل وتحية، دلف الشيخ من باب الإمامة، وسار ببطء حتى كان المقام الذي بزغ من الأرض كملاك مضيء، فسلّم على رُوح الإمام، ووقف يتأمل المتمسحين بالمقام، فما كان من فيض نوره هو يقين لهم، وإلى يقين النور يأتون أفواجًا، وبيقين النور يدعون ربهم متباركين بنسب النور، فلا لوم ولا تثريب على هائم أسكره الهوى، ولكل محب مذهبه، ومسلكه، وطريقه وطريقته، ولكل مريد غاية فمن علة يرتجي شفاء، وعقم يبتغي ولدًا، ومن معصية يرتجي مغفرة، ومن قسوة يرتجي رحمة، ومن ظلم يبتغي عدلاً وعلى الله قصد السبيل.

اقترب "العارف" من المقام وأمسك بالشباك النحاسي بكلتا يديه، ثم مدّ بصره نحو موضع رأس الإمام، وأراد أن يصيح في الناس بأن الرأس هي نور يمتد إلى الصدور، فالنسل باق لا ينقطع، وبنور عترته تنشق الظلمات، وتضيء القيعان، وتهتدي الحيتان، فجاء من يربت على كتفه من الخلف فالتفت فرآه.. رأى "هارون" رأى فيه وجهه وملامحه، رأى نورًا يشع من قلوب المريدين، فقبض على يد ابنه، ثم ضمه إلى

صدره ضمة كبرى فالتحم داخله، تشابكت العروق بالعروق، وامتزجت الدماء بالدماء، والتفت الضلوع بالضلوع، وانصهر القلب في القلب، فصاح بصوت جهور أتاه من الآفاق.. يالله! ارتفع الصوت بالذكر، وتوحدت الغايات، والدعوات، والأمنيات، والرجوات، توحدت القلوب، واجتمع النور، فتصدعت القناديل، وارتجفت، فانطفأ النور كله وبقي مقام الإمام وحده يشع بالنور، فهلل المريدون وكبّروا، ونُسجت الحلقات تضج بالذكر، فنسى المريدون أمانيهم التي أتوا يتمسحون بها، وتعلقوا بأمنية واحدة حملتها الملائكة إلى السماء..

خرج "العارف" إلى باحة المسجد فأبصر حياة دنيوية دنية، أناس ألهتهم الأمنيات الصغيرة، وسيارات علت أبواقها تتسارع، وتصارع الفناء فظن أهلها أنه لن يلحق بهم أبدًا، نظر الشيخ يمينًا ويسارًا يطالع الساحة الكبرى فوجدها قد خلت تمامًا من الدراويش، ولم يتبقَ سوى باعة الحلوى يفترشون الرصيف ينتظرون فُتاتًا من الرزق تكفيهم، فسار إلى الشوارع الجانبية يتأمل الأزمان التي تراكمت على الجدران، لكن كل ما مضى كله يكمن خلف جسر المطلق، أما من عبر فقد عاش زمنًا واحدًا لا يتغير ولا تتراكم أحداثه، وقد عبر.. ورأى.. وعاش.. وتعلم وعاد بقلب آخر لا تغلفه الحجارة، فظل ينظر إلى الوجوه

الشاحبة ويشفق على أصحابها حتى أنه تمنى أن يتحول قلبه إلى رغيف خبز يوزع مزقاته عليهم ليشاركوه مذاق العشق، فتلك الدموع الرقراقة التي تنحدر من مآقيهم ما لها إلا العشق، وتلك الحجب التي تكبل أبصارهم ما لها إلا العشق، وتلك الأمنيات التي تحصد أعمارهم ما لها إلا العشق، وتلك الآلام التي تنخر أجسادهم ما لها إلا العشق ،فسقطت دمعة قصية دافئة من عينه حزنًا على فراقهم حينما انفتح أمامه باب التكية، تكية "أسماء" التي كانت ما تزال مجمع الأبواب، ومحل الرحيل إلى درجات العالم الآخر، ومرفأ العودة من بحور العشق.

كانت "أسماء" تتربع في مقعدها المخملي تتحسس كتاب جديد حرصت على أن تخفي عنوانه، نظر إليها نظرة طويلة دون أن يتحدث، أو يعلّق بكلمة واحدة، أما هي فرغم شعورها بوجوده إلا أنها لم ترفع يدها عن الكتاب التي ظلت تقرأ صفحاته الأولى بتعمق، ولم تهتم بوجوده على الإطلاق، فأيقن أنها تستعد لإستقبال زائر جديد قد يأتي اليوم، أو غدًا أو بعد غدٍ فالله وحده أعلم بالآجال، اتجه الفتى إلى الغرف السبع فأبصر خمسة أبواب مشرعة عن آخرها يبزغ منها نور ينتشر في كل مكان، فعاد مرة أخرى ليصعد السلم الخشبي المؤدي إلى غرفته الوحيدة في الدور العلوي فأوقفته "أسماء" قبل أن يطأ

الدرجتين الآخرتين قائلة بصوت مسموع:

- بقي لك درجتان لتبلغ الصعود.

فلم يهتم بما قالته ولم يلتفت إليها ومضى في طريقه صوب غرفته، دفع الباب برفق فرأى طلابه في انتظاره في غرفة الدرس داخل تكية "عمران"، فأدرك أن ما مضى كان نزهة للنفس رأى فيها ما ينقصه، وما يحتاجه الآخرون، فجلس أمام طلابه وفتح كتاب "عمران"، وأخذ يقرأ عليهم قصة رجل خرج من قريته يبحث عن أمنيته الصغيرة بين أضواء المدن لكن شاء له الله أن يصادف نورًا، فأبصر أمنية كبيرة سعى للحصول عليها، فتشعبت أمامه طرق أخرى لا تنتهي بحكايته، فأيقن أنه كي يصل إلى ما يتمناه لابد وأن يعيش حكايا الآخرين بكل تفاصيلها، فنسى أمانيه التي خرج من أجلها وظل يشارك الناس أمانيهم فتمنوا جميعًا ما يتمناه، وتمنى هو أن يحقق ما يسعون إليه، فأبصر في وجوههم نفسه، ورأوا في وجهه نورًا يضيء قلوبهم جميعًا فظل بينهم يرونه كما شاء لهم الله، ويبصرهم كما شاء له وأضحت أمنيته الكبيرة سر عظيم معلّق في السماء يحصل عليه يوم صعوده، أغلق الشيخ الكتاب حينما أنهى الحكاية الوحيدة المدونة داخله، وأخذ يحدّق في وجوه طلابه فهمّ أحدهم أن يسأل فأجاب الشيخ:

- إن أهملت أمانيك لتحقق أماني الناس ستنسى ما كنت تتمناه.

فرفع طالب آخر قلمه لأعلى وأراد أن يُسمح له ليسأل سؤالاً آخر، فأجابه قبل أن يخفضه:

- النسيان رحمة كبرى يا بُني.

صمت الطلاب جميعهم لكن ظل سؤال يتأرجح في نفس كل واحد منهم، أجاب عنه "العارف" دون أن ينطق بكلمة واحدة، فاطمأنت نفوسهم وهدأت حيرتهم دون أن يخبر أحدهم الآخر بما تلقاه من إجابة، فقام الشيخ من مقامه وتركهم يدونون في ألواحهم بما فتح الله عليه من إجابات.

في صحن الدار كان "هارون" يصنع عرائس "الماريونيت"، فأخذ "العارف" يتأمله وهو يشكّل الوجوه الباسمة، ويعقد الخيوط، ويصبغ الألوان، لكنه ترك وجهًا واحدًا بلا ملامح جلس يتأمله ويفكر، أمسك بزجاجات الألوان ومزجها في قنينة واحدة، ثم خضّب الوجه الأخير فصارت ملامحه تشبه كل الوجوه الضاحكة التي صنعها إلا أنه خرج عليه بملامح واجمة، فنظر إليه نظرة طويلة ثم ابتسم، فابتسم "العارف" حينما دس عرائسه في كيسه القماشي وحملها متجهًا إلى

الشارع الأعظم يداعب بها الأطفال ويقص عليهم حكاية وحيدة دوّنها "عمران" في كتابه، وظل يحكيها لطلابه كل يوم فأتاهم منها بعلم لا ينتهي، حتى رحل وعاد صاحب الحكاية يرويها بنفسه، لكنه لم يكن يعلم أن الله سيخرج من ظهره من يبعث في عرائسه الحياة ليعيد بها حكايا ظنها قد اندثرت، لكن المرايا لا تتغير بل الصور دائمًا ما تبلى وتختفي، لكن هناك صورًا أخرى محصنة بالنور لا تبلى أبدًا، ولا تختفي أبدًا، بل تظل تحرك الدُمى لتجمع الإبتسامات من وجوه الأطفال، فكل من مروا من هنا دون أن يأخذوا من النور شيئًا، هم دُمى مضحكة خضّبها "هارون" بالألوان وعقد حولها الخيط وخرج بها إلى الشارع الأعظم، اجتمع الأطفال حول الغلام يضحكون، ويبتسمون ويطلبون منه المزيد من الحكايا لكنه كان لا يعي إلا حكاية واحدة كلما قصّها عليهم كأنه يرويها للمرة الأولى، فيطلبون المزيد والمزيد فتزداد ضحكاتهم وتعلو، وترتفع على وقع قصة مبكية، لكن فتاة واحدة كانت لا تضحك أبدًا، فتقدمت نحو الغلام وأهدته ورقة بيضاء وأخبرته بأنها رسالة من عند الله، فطواها الفتى واحتفظ بها في جيبه دون أن يوجه لها سؤالاً واحدًا أو كلمة واحدة، لكنه أخذ يتابعها ويحرسها بعينيه حتى غابت وسط الزحام، فوزع عرائسه جميعها على الأطفال، لكنه

احتفظ بالدمية الواجمة التي خضبها بالألوان كلها في كيسه القماشي، ثم عاد إلى الدار يحمل بين حناياه أسئلة كثيرة لا يبوح بها، فتقدم إلى غرفة الدرس التي خلت من طلابها، وجلس في مقعد "عمران"، ثم أخرج الرسالة من جيبه، وأخذ يقرأ أن "بسم الله"، فأشرق وجهه بالنور وهو ينظر إلى مجالس الطلاب وألواحهم التي دوّنوا فيها بأقلامهم قصة رجل خرج يبحث عن أمنيته الكبيرة فتعثر بأماني الناس فنسى ما كان يتمناه ليحقق لهم أمانيهم، طوى الغلام الرسالة وأعادها إلى جيبه، ثم أخرج من كيسه الدمية الواجمة وطفق يتأملها، فابتسم حينما رآها تبتسم حتى أنها ظلت تحتفظ بإبتسامتها، فخرج بها مرة أخرى إلى الشارع الأعظم، وأهداها للفتاة الصغيرة التي كانت في انتظاره عند سبيل "قيطاس" تملأ جرة أثقلها الماء فحملها عنها وسار أمامها، حتى بلغ تكية "أسماء"، طرق الباب فامتدت يد سمراء تستقبله فدخل مُرَّحبًا به.

عاد "العارف" الذي كان يراقب ابنه من بعيد إلى خدر "فاطمة" بقلب يضمخ بالعشق بعدما أدرك سره، لكن إدراك الأسرار لا يعني شيئًا سوى النهاية، سألته "فاطمة" عن ابنها فتحسس ملامح وجهها، ودفع خصلات شعرها إلى الخلف ثم قال في اطمئنان:

- خرج إلى رحلته مبكرًا فلا تتعجلي من رحل لأجل العشق.

- واشوقاه.

- نامي واطمئني وقري عينًا فما خرج عاشق إلا وعاد.

انتبه "العارف" لدقات أتت من خارج النافذة، فتقدم نحوها بعدما قطع حديثه مع "فاطمة"، ثم فتحها ببطء شديد، فأبصر الطائر يقف أمامه، يحمل في منقاره رسالة قديمة عجز عن قرائتها من قبل فأهداها لنادل المقهى مقابل فنجان قهوة لم يكن يمتلك ثمنه، لكنه كان يمتلك هذه الرسالة التي ظلت مفتاحًا لكل المغاليق الدنيوية التي واجهته، فألقاها الطائر داخل الغرفة ثم عاد للتحليق في السماء، التقطها "العارف" ثم فتحها على عَجل وأخذ يقرأ حلقة الرموز المدونة داخلها، والمكتوبة بخط غريب، فقرأ قصة "رجل خرج يبحث عن أمنيته الكبيرة فتعثر بأماني الناس فنسى ما كان يتمناه ليحقق لهم أمانيهم.." لكنه عجز عن قراءة كلمة أخيرة كُتبت خارج الحلقة، حاول مرارًا وتكرارًا أن يقرأها، أن يفسرها، قلب الرسالة يمينًا، فيسارًا لكن لم يطاوعه المعنى قط، فطوى لفافة الرقاع وأهداها لـ"فاطمة"؛ لتضعها تميمة في صدرها، لعل يأتي يوم يعود "هارون" ويتم قرائتها، ففعلت ما أراد دون أن توجه إليه سؤالاً واحدًا، فابنة "عمران" تعلم جيدًا أن أفعال

العارفين كشفرات المفاتيح لا تُبرر ولا تُعلل، فقط هي إجابات لأسئلة لا يجب أن تبوح بها لأحد، أغلق "العارف" النافذة ثم جلس تحت القنديل المتدلي من سقف الغرفة يصلي بقلبه لله بعدما تخلى عن جسد مظلم لا يليق بصاحب كل هذا النور، بينما كانت "فاطمة" تصلي خلفه وترفع كفيها للسماء وتدعو ربها دعاءً لا يفقهه إلا من سلّم نفسه للوجد، أنهى "العارف" صلاته ثم جلس في فراشه يقرأ من سورة "الدخان"، حتى أتاه برهان الله ونظرة طويلة إلى مرآة "فاطمة" رأى فيها "هارون" يجلس مع طلابه على شاطيء النهر، بينما كان يعلمهم كلمة عجز "العارف" عن قرائتها فعلمها إياه، فكانت الكلمة هي "هارون" فأشرق وجهه بالنور أن جعل الله منه كلمة لا تموت، فقرأ قوله تعالى " فَضْلا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ." أغلق المصحف وخلد إلى نوم عميق بعدما أيقن بأن علامات الطريق لا تنتهي.

في الصباح استيقظ "العارف" على صوت "فاطمة" تغني أغنية العودة، وتحمل بين يديها زهورًا بيضاء وضعتها في مزهرية جوار النافذة، فقاوم الشيخ شعاع الشمس الذي تسلل داخل الغرفة يداعبه، فبدت "فاطمة" كفتاة بدوية أتت من أقصى الصحراء، فالتفتت إليه

قائلة وهي تشير إلى الزهور:

- لن تزول رائحتها حتى يعود "هارون".

- يومًا ما ستجف ويتغير لونها.

- لقد وعدتني بأنها ستظل ناضرة.

- إذًا فهي زهور مخلصة.

- بل قل إنها عاشقة.

ضحك "العارف" ثم قام من فراشه يبحث عن ماء للوضوء، فأحضرت له "فاطمة" ما أراد، ثم دخل في صلاته خاشعًا، بينما انتشرت رائحة الزهور تملأ المكان، فشعر برُوح طيبة أتته بنبأ عظيم، فأسلم قلبه للّه:

- لقد صعد "عمران" الآن إلى المقام المكين.

سلّم "العارف" يمينًا، فيسارًا حينما سمع هذه الكلمات تتردد في العالم الآخر، ثم مدّ بصره إلى الزهور البيضاء وبكى بكاء المسرورين، فهنيئًا لمن يصعد المدارج صوب الحقيقة، وهنيئًا لمن مات في دنياه وعاش في السماء يُذكر حيًا، جفف الشيخ دموعه حينما شعر بزوجته تقترب، لكنه لمح في عينيها دموعًا، فأحنى وجهه ليخفي خبرًا قد

تفضحه ملامحه، فتساءلت "فاطمة" بصوت متحشرج:

- أبي؟!

- لقد عاد "عمران" من حيث أتى.

- لكنه الفراق يا "عارف".

- الفراق يا "فاطمة" لا يكون لعارف قط.

وقفت "فاطمة" أمام الزهور البيضاء ونظرت إلى السماء الصافية ثم تحدثت إلى "عمران" بعين اليقين:

- لا تطرق الباب وحدك يا أبي، فابسط يدك لتأخذ معك كل المحبين؛ لأنك ستملّ منهم شكوى الفراق.

اقترب "العارف" من زوجته ثم مسح دموعها برفق قائلاً بلهجة مواسية:

- وعَبرة تصعدُ إلى القلبِ فيرقُ لمن فارقه ويبقى الوجدُ يداعبُ مشاربَ النسيانِ.

- في "صفر" تتسابق الأرواح الطيبة للسفر إلى السماء، وتبقى الذكرى عالقة في الأماكن والأشياء، لكننا غفلنا أنه عبور يتبعه عبور، وما

الذكرى إلا بشارات للعزم.

- نسير يا "فاطم" في دائرة نهايتها بداية، وبدايتها نهاية، نعود من حيثما نرحل، ونرحل إلى حيثما نعود، وكل مُقدّر هو مُقدّر، فالجنة قَدَ سابق الأفعال، والنار هي أفعال تأخرت عن الفوز بعد أن قُدّرت الأفعال من قبل قبل كل فعل، فكان ما كان يكون، وكل ما هو كائن كان، بعد أن خطت صحائف النعيم والشقاء، قبل أن يتعرف الماء على الماء، فنفعل ما نشاء وكل فعل موجود من عدم، وتبقى القلوب رهينة المشيئة، فما شاء هو لك، وما لم يشأ هو لك، وتبقى أنت كما أنت لا زيادة أو نقصان، فمهما فارقك المحبون فأنت كما أنت، ومهما عادوا فأنت كما أنت، ومهما تعددت المرايا من حولك فأنت كما أنت.

أطرق "العارف" برأسه للحظات، ثم ربت على كتف زوجته وغادر الغرفة، بينما ظلت تقف وحدها أمام النافذة تناجي الله بالدعاء فلعلها من عباده الصالحين، فبما رحمة منه ومغفرة، ورضوان.

ورث "عارف" "عمران"، ولكن "عمران" لم يورّثه درهمًا ولا دينار بل ورّثه العشق، والعرفان، أزاح الشيخ باب حجرة الدرس وسار بين طلابه على مهل، بينما كانوا يرفعون ألواحهم فارغة ويطلبون منه المزيد،

فمنهوم العلم لا يشبع أبدًا حتى ولو كان مداده البحر، فتربع "العارف" على مقعد "عمران" وقبض على مخدعيه بعدما صلى وسلم وكبّر، ثم أخبر طلابه بأن "عمران" قد صعد إلى السماء، وترك لهم حرفًا، وكتابًا، وقلمًا، ولوحًا، فَهَمَهَم الطلاب فيما بينهم ونكّسوا ألواحهم حزنًا على فراق كلماته، فصاح "العارف" فيهم بأن الله أعلى وأكبر، وما مات عارف قط، أو رحل، بل يظل نوره تعكسه كل مرايا الأرض من يمٍ، وبحرٍ، وجبلٍ، ورملٍ، وترابٍ، وما الرحيل إلا خروج من عالم الطين إلى عالم النور، والجنة نور، فالجنة ليست أنهارًا من لبن وعسل كما نظن بل هي نور فوق نور، طعامها نور، وشرابها نور، وسكانها من نور، والجنة ليست هي المكافأة الكبرى لكل فاعل للخير، فالمكافأة دائمًا هي النهاية التي تفقدنا لذة العطاء، فالجنة رحمة من عند الله لا تنتهي، ولا يساويها خير فعلناه، وما فعلناه من خير لا يعدل نعمة واحدة بها سمعنا، وبها أبصرنا، وبها شعرنا، فنحن هبطنا إلى الأرض لأن خلقنا كان من طين، ولكن حينما تصعد أرواحنا الطيبة إلى الجنة تصعد نورًا لا يرتد أبدًا فتظل آثارها علامات مضيئة لمن كُتب له الصعود، أما الأرواح الخبيثة فتصعد لتُحرق وتنتهي في نار لا تلتهم النور أبدًا.

عادت غرفة الدرس تضج بصرير أقلام الطلاب وهم يدونون ما فتح

اللّه به على شيخهم بعدما قلّب اللّه قلوبهم فأنساهم حزنهم، فنظر إلى طلابه مبتسمًا ثم قال:

- الجنة رحمة لا ينالها إلا من أتى اللّه حاملاً كتابه بيمينه مُستحيًا كأنه لم يفعل خيرًا قط.

فتوقف الصرير وجلس الطلاب كأن على رؤوسهم الطير، فدخل طالب جديد يحمل في يده قلمًا ولوحًا دوّن فيه ما قاله الشيخ سريعًا، فابتسم الشيخ قائلاً لطلابه بينما كانوا يتلفتون إليه:

- إذا توقف الصرير فسيأتي حتمًا من يُسمعنا صريره.

فانهال الطلاب على الألواح بالتدوين، فقرأ الشيخ قوله تعالى:

- وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ، فِي جَنّاتِ النّعِيمِ.

فبكى الطلاب جميعهم، وتدفقت دموعهم تسيل على الألـواح، فقام "العارف" من مقامه بعدما اطمأن أن بكائهم ما كان لفراق بشر وإنما طمع في رحمة تمنوها، فدعا لهم ربهم بما تمنوه.

اتكأ الشيخ على عصا من "العوسج" بعدما هدّه المرض، فثقل جسده على قدميه وباتت خطوته الأولى تنتظر منه الثانية، فسار إلى الشارع الأعظم وعند سبيل "قيطاس" توقف ليتأمل من ثقلت أحمالهن،

وينتظر من يحملها عنهن بقوة العشق، فكان ما جاء من أجله، فأدرك أن العشق باق لا ينتهي، فعاد إلى خدر "فاطمة" التي كانت ما تزال ترعى أزهارها البيضاء أمام النافذة وتغني أغنية العودة، فمسح على شعرها الذي اشتعل بالشيب قائلاً:

- وما انتظار المحبين إلا لقاء لا ينتهي يا "فاطمة".

حدّقت في وجهه طويلاً لترتوي من ملامح طال غيابها، فدفن "العارف" رأسه في صدرها فرأى بابًا سادسًا يُفتح ظن يومًا أنه لن يُفتح، وتدفق الصوت من مسجد الإمام يملأ عليهما المكان.. الله.. الله.. الله، وهبّت ريح عليلة اهتزت على وقعها زهورها البيضاء.. فصاح "العارف" بصوت غمره العطر يا الله!

٨- الباب السابع

اختفى الطائر المحلق من سماء القاهرة..

امتلأ المسرح عن آخره بالجمهور حينما وقف البطل يؤدي مشهد تراجيدي مبكي في مسرحية الملك "لير"، بينما وقف الحارس حامل الحرباء مستيقظًا حتى انتهى المشهد بتصفيق الجمهور، لكن شيئًا ناقصًا شعره المخرج المتسلط نأى به عن فرحة النجاح، فخرج إلى جمهوره يعتذر لهم عن عدم سقوط الحرباء من يد حارسها الصامت فتسبب المشهد في بكاء لم يقصده، فاندهش الجمهور وغادروا المسرح على وعد منه بإعادة المشهد في المرات المقبلة بشكله الفانتازي المضحك، فنظر إلى الكراسي الخاوية تحت وطأة الظلام، وانتظر.. انتظر "عارف حسين" أن يخرج عليه ليؤدي دوره ببراعة، لكن أحدًا لم يخرج عليه من الظلام، فأسدل الستار وأوقف العرض وقرر ألا يعود حتى يأتي الفتى.

في تكية "أسماء" كان المقعد المخملي خاليًا، إلا من كتاب تركته، وغادرت إلى مسجد الإمام؛ لتطعم مريديه، وتسقيهم سبع ليال تنتهي بمولده، أما "عارف" فكان مازال يقطن غرفته في الطابق العلوي، يراقب الوشم الذي ارتسم على الجدار، ويصارع أحلامًا متكررة لم تفارقه منذ خرج من قريته طالبًا دور البطولة تحت أضواء القاهرة، فوقف تحت القنديل المتأرجح الذي يتوسط الغرفة يدور، ويدور، يطحن بجسده الهواء وينسج هالات من النور حول خصره، لكن الطائر الذي انتظره ليأكل من حبات قمح وشربة ماء وضعها له أخرجه من وجده بدقاته المتتالية على النافذة، فاتجه إليها وفتحها فوجده يأكل من قمحه حتى شبع، ويشرب من مائه حتى ارتوى، فشكره، فشكر له، فأغلق النافذة وعاد يدور، ويدور أسفل المصباح، حتى أرداه التعب أرضًا، فتذكر ما كان يأمله وحرمه منه المخرج المتسلط، فنهض سريعًا وأطفأ القنديل وعمّ الظلام حتى بان الوشم مضيئًا بملامحه هو، فصعد إلى سريره، وأدى دور البطولة ببراعة في مسرحية الملك "لير" فصفق له جمهوره الإفتراضي ببراعة، فأحنى جسده لهم يحييهم، فابتسم الوشم له، فابتسم له، فقرر أن يعود إلى المخرج المتسلط، ويقف أمامه على خشبة المسرح، ويصرخ في وجهه بأنه هو البطل، ولن يؤدي أبدًا دور

الحارس الصامت حامل الحرباء الذي بدل حال الجمهور من البكاء إلى ضحك هستيري، لكنه أعرض عن الفكرة سريعًا لأنه يتمنى أن يكون أعظم من ملك أحمق خذلته بناته، وغفل عن حب حقيقي، وظل يعيش في وهم الخداع حتى مات، وصار دورًا تافهًا يؤديه ممثل أراد أن يصفق له جمهور مخمور أتى طالبًا ظلامًا يستر عورته، فحمل عرائسه وارتدى جلبابه، ووضع على رأسه عمامة "عمران"، وقرر أن يخرج للأطفال يبحث عن فتاة أهملها أتته يومًا برسالة بيضاء من عند الله، لكنه حينما نزل إلى الشارع وجده خاليًا إلا من الدراويش الذين تجمعوا خلف الضباب في حلقة كبيرة يتلقون رسائلهم التي سيطوفون بها الشوارع ليبلغوا بها الناس، فجذبته الأضواء التي انبثقت من الشارع الشرقي وأصوات الذاكرين، المسبحين، التي حملتها رائحة البخور التي تفوح من مسجد الإمام، فسار حتى بلغ المقام فرأى المريدين يلتفون حوله وينتظرون أول الداخلين ليكون شاهدًا وبرهانًا، فتهللت وجوههم جميعًا حينما رأوه، وصاح كبيرهم قائلاً "سِمَاهم على وجوههم فنعم العابرين." فاندهش الفتى لما يقول، بل اندهش مما رأى من نور يشع، وعطر يضمخ من المقام، فتقدم الشيخ نحوه ووضع يده اليمنى على صدره وبصوت دافىء تحدث:

- ألهمَنا الله بأنك من ستقطع الشك باليقين فأخبِرنا عمّ رأيت؟

حدّق "عارف" في وجه الشيخ، وخُيل له أنه قد رآه من قبل، وعاش معه، وعانقه، وتزوج ابنته، وتلقى منه علمًا به اطمأن، فابتسم "عمران" وأعاد عليه السؤال:

- هل رأيت؟

فحرّك لسانه ليعجل بالإجابة، لكن شيئًا وقر في قلبه منعه من ذلك، فأعاد "عمران" السؤال:

- هل رأيت؟

فأجابه "العارف" واثقًا بعدما أتته البشارة من عند الله تملأ عليه كيانه:

- أبصرتهم جميعًا.. أبصرتكم جميعًا.

فهلل المريدون وكبّروا، وعلا صوت الذاكرين المسبحين في الباحة الكبرى، وعُقدت حلقات الفناء في كل مكان، وتوهج النور يشق طيات الظلام التي جثمت على القلوب، فانفرجت الكُرب، ونُقضت العُقد، وانفتحت المغاليق فأصبح الخلق يستقبلون يومهم بالتوسعة، فالليلة

المباركة يحظى بها المحبون لينهلوا من بِشرها جدائل من نور، ورزق، ارتفع الصوت بالآذان، آذان الفجر فنثرت الملائكة فوق رؤوسهم عبق الوجد فقدم "عمران" "العارف" إلى المحراب ليصلي بهم ركعتين أرادوا بهما يقينًا فوقف "العارف" أمامهم يكبّر حينًا، ويحمد حينًا، ويركع حينًا، ويسجد حينًا، ويصلي ويسلم تسليمًا، سلّم "العارف" يمينًا فيسارًا، ولكنه حينما استدار إلى المريدين لم يرَ منهم أحدًا، فرأى أناسًا قصدوا الله جاءوا من كل فج عميق ليتباركوا بالنور، فنهض أحدهم من الخلف وبوجهه الأسمر ابتسم له وصافحه بحرارة عاشق، وناوله رغيف خبز دفن داخله قطعة لحم، وبعض البقول، ثم أردف قائلاً:

- ذُق طعم الدنيا من هنا، وإياك أن تظن أنك قد أتممت مذاق كل شيء.

قال هذه الكلمات ثم قام يوزع نفحاته على المتهافتين، بينما أخذ يتابعه ويعلّق بصره بعينيه، فأكل "العارف" بسم الله، فانصرف عنه بعدما اطمأن بأنه طعم طعامه، وانشغل بمن جاءوا يمدون له أيديهم طالبين ما يسد جوعهم، وهنا شعر الفتى بأنه ما خلق إلا ليؤدي دورًا عظيمًا لم يتكرر أبدًا من قبل، فجلس يتأملهم حتى أيقن أنه لا يوجد بينهم من جاء ليؤدي دورًا ثانويًا، ولا يقف خلفهم مخرج متسلط يعدّ عليهم

أنفاسهم، ويحصي كلماتهم، ويحسب خطواتهم خطوة.. خطوة، فلكل واحد منهم حكايته المتفردة التي جاء يقصّها بطريقته بينما تجمعهم حكاية واحدة لا تنتهي، إلا إذا جاء من يقصها عليهم من جديد، فقام "العارف" مغادرًا المحراب ليكمل حكايته التي لم تنتهِ بعد.

جلس "العارف" على المقعد الأخير في الظلام، يراقب المخرج الذي وقف كتمثال من الشمع على خشبة المسرح وسط بؤرة الضوء، صامتًا، مُنكّس الرأس، لا تصدر عنه حركة واحدة، فتقدم نحوه الفتى في بطء فتحركت بؤرة الضوء ترافقه، حتى صعد إلى حيثما يقف، حدّق في وجهه طويلاً قبل أن يتحدث إليه قائلاً:

- أتيتك اليوم لأتنازل لك عن حلمي الصغير.

بينما ظل المخرج صامتًا، لا يلتفت إليه، فعاد "العارف" يتحدث:

- كنت أعلم أنك لن تحقق لي أي شيء، ورغم ذلك قبلت بدور حامل الحرباء الصامت.

اقترب "العارف" منه ثم رفع رأسه قائلاً بلهجة ساخرة، وهو يشير ناحية المقاعد الخالية:

- ظننتَ أن المجد سيأتيك من الظلام، بينما نحن من نحترق لأجلك.

لم ينتظر الفتى ردًا منه واسترسل قائلاً:

- انظر إلى تلك المقاعد الخاوية، وسترى فرحتها لرحيل جمهورك المستفز.

تنهد تنهيدة طويلة، ثم التقط أنفاسه وعاد يتحدث:

- أتعلم أنني لم أمنحك سوى دور ثانوي تافه في حكايتي الطويلة؟

توقف "العارف" عن الكلام قليلاً لينتظر منه الإجابة، انتظر طويلاً لكنه لم يتلقَ أي رد، فالتفت إليه، وتقدم نحوه ببطء شديد، مدّ أصابعه يتحسس وجهه، تحسس عينيه، تحسس قلبه فخرّ على الأرض كومًا من الرماد، فسقطت، فوقف الفتى متسمرًا يحدق في أصابعه، بينما صفّق له الدراويش الذين امتلأت بهم المقاعد بحرارة، فأحنى جبهته يبادلهم التحية، فأضاء المسرح عن آخره وأُسدل الستار على دورٍ أدّاه ببراعة.

حمل الفتى عرائسه وخرج إلى الشارع الأعظم ليواصل بحثه عن فتاة أهدته رسالة بيضاء يومًا ما، ثم أخبرته بأنها من عند الله، بحث عنها كثيرًا لكنه لم يعثر عليها، فأخذ يداعب الأطفال الذين تهافتوا عليه من الأزقة الجانبية، فقص عليهم حكاية رجل خرج من قريته يبحث

عن أمنيته الكبيرة فتعثر بأماني الناس فنسى ما كان يتمناه ليحقق لهم أمانيهم، فضحك الأطفال جميعم وأخذوا يشيرون نحوه بأصابعم الصغيرة، ويدورون حوله، فظل يدور معهم ويبتسم لهم، حتى خرجت الفتاة التي أرادها من بينهم تحمل إليه رسالة جديدة، فاقترب منها ثم جثا على ركبتيه وقبّلها على رأسها برفق بعد أن ناولتها إياه، فأهداها عرائسه، فقبلت هديته ثم وزعتها على الأطفال قبل أن تختفي وسط الزحام، لكنه انشغل عن فض ختام الرسالة بصنع عروس لطفل لم يصبه الحظ من توزيع الهدايا، فجلس يبكي جوار جدار قديم تتوسطه نافذة متهالكة، فتقدم نحوه الفتى وربت على كتفه، ومنحها إياه، فابتسم له وأخذ يشير إلى الرسالة التي كان يحتفظ لا يزال بها تحت إبطه، ففتحها الفتى على مهل فأتته منها كلمة واحدة كتبت بخط واضح "هارون"، ردد الكلمة بصوت مسموع، فعاد الغلام يشير له صوب النافذة، فتقدم نحوها بارتياب خالطه يقين قديم، انشق الجدار أمامه حينما دفعته أوصاله للعبور.. فعبر الفتى نحو النور الذي انبثق من صحن الدار.. دار "عمران".

سار "العارف" متكئًا على عصاه حتى بلغ غرفة الدرس، فدفع الباب ببطء فرأى.. رأى "هارون" يجلس في مقعد "عمران" أمام طلابه،

يقرأ عليهم من كتابه قصة "غلام ظل يحمل عن أمه ثقل الماء، ورحل حينما عاد أبوه من رحلة عشقه، لكنه حينما عاد لم يجد من يحمل عنه ثقله بعدما أراد الله له أن يكون عقيمًا."، أغلق "العارف" الباب سريعًا حينما سقطت العصا من يده، بعدما أيقن أن في العودة رحمة، وفي الغياب حكمة، وبينما هو يحاول الإنحناء لإلتقاط عصاه، كان "هارون" قد سبقه إليها وناولها إياه، قائلاً برفق:

- يا أبتي لا تنحنِ لتلتقط عصاك وسندك مازال حيًا يُرزق.

- أخبرتني زوجتك بآلامك فعدت إليك.

- لقد صنعت لي فرحًا وأهديتني إياه، ومسحت دموعي جوار الجدار.

ابتسم "العارف" وربت على كتفه قائلاً:

- يا بني ما أتعس الألم إذا ما أصاب قلبًا مريضًا، أما إذا قصد قلوب الطيبين؛ فنجاة.

فرفع "هارون" كفيه إلى السماء حامدًا:

- الحمد لله الذي بالإستغفار يرزقنا مددًا ممدودًا، وبالشوكة مغفرة ليس لها حدودًا، وبالرحمة جنة وخلودًا.

توكأ الشيخ على كتف ابنه بعدما حمل عنه عصاه، واصطحبه متجهًا

إلى خدر "فاطمة" بينما ارتفع صوت صرير الأقلام من غرفة الدرس يزفهما حتى بلغا الباب، فدخل "العارف" وحده فرأى زوجته تقف أمام الزهور البيضاء أسفل النافذة تغني أغنية العودة، فكانت الزهور ما تزال ناضرة، مستبشرة بعودة غائب سيأتي يومًا ليشدد من أزر "هارون"، فأشرق فؤاد "فاطمة" بعودة وليفها العاشق، فوقفت في مواجهته مبتسمة لا تنطق بكلمة واحدة، بينما تقدم نحوها الشيخ ودفن رأسه في صدرها، فهبط وميض من السماء يشق الظلام شقًا، فعلا صوت الذاكرين، المسبحين، الساجدين بالإستغفار، وهبّت نسمة عليلة اهتزت على وقعها الأزهار، وانغلق الباب، باب الغرفة، بينما فُتح باب آخر في كل بقاع الأرض.

جلس الشيخ في صحن الدار يرفع كفيه إلى الله تضرعًا، وينتظر.. ينتظر خروج ابنه من خلوته التي دخلها دون طعام أو شراب، فقط كان يرافقه الكتاب، كتاب "عمران"، حتى أتاه البشير من عند الله ينسج اسمًا جديدًا في السماء، فاطمأن قلبه لفرجٍ آت، ووعدٍ لا ينقطع، فأتته "فاطمة" تبشره ببذرة جديدة تتفتق في أحشائها، وبحكاية جديدة لا تنتهي، قام الشيخ من مقامه غير مصدّق، وأخذ يدور في صحن الدار، يدور.. يدور.. يدور.. ويصيح بصوت آتاه من الآفاق.. يالله.. يالله!

فصاح.. وصاح.. وصاح ذاكرًا بذكر يُذكر به في السماء.. الله.. الله.. الله ثم خرّ ساجدًا، فخرت "فاطمة" ساجدة لله شكرًا.

قام الشيخ من سجوده يناجي ربه بعدما ابتلّت لحيته بالدموع قائلاً:

- اللهم يا من وهبت الشجرة العتيقة ثمرتها بعدما انقطع عنها الثمار، ووهبت الأرض العطشى قطرة ماء بعدما انقطع عنها المطر، ووهبت الكهل غلامًا بعدما جف صُلبه، هبني وذريتي رحمةً وعلمًا.

تهافت الدراويش على تكية "عمران" يهنئون الشيخ وزوجه بعدما نشر العطر الخبر في كل مكان، فعقدوا حلقات الذكر تباعًا، وضربوا على أنفسهم صومًا طويلاً قصدوا منه صبرًا يتبعه فرج بعد ضيق، ويسر بعد عسر، وميلاد بعد موت ، فظل البيت يعج بنور الإستغفار ليل..نهار، ولم يكف المداحون عن مديحهم وضرب الدفوف دون انقطاع، بينما أتت النسوة يستجدين الرجاء بالمدد، والولد، حتى تتابعت الأشهر، وتوالت، انتقص فيها القمر هلالاً، وانتصف بدرًا ، واختفى محاقًا، ولما كانت الليلة السابعة من شهر رجب هدأ كل صوت، استوى مع صوت الذاكرين، المسبحين، الحامدين، الله..الله..الله حتى اختلط بصوت "فاطمة" الذي اندفع مع آلام المخاض، فضاقت الحلقات، وزاد الدوران، وصفت السماء، ونُثرت النجوم، وارتعشت قناديل

الأرض بالنور..خفت الصوت وانطلقت صرخة الميلاد الأولى، فخرج المولود ولدًا من رحم الرجاء، خرج "هارون" عارفًا من خلوته يستقبل الآذان الأول، آذان الفجر، فانفرجت الحلقات، واتسعت، وعاد صوت الذاكرين، المسبحين، الحامدين يعلو، ويعلو، اللّه..اللّه..اللّه فتقدم الشيخ صوب ابنه يعانقه، ويتحسس صدره قائلاً :

- ردّ اللّه إليك قلبك فرددت إلينا قلوبنا جميعًا.

- أويت إليه فكفاني، وصفيته فصفاني.

اصطحب "العارف" ابنه إلى خدر "فاطمة" فابتسمت لهما، ثم ناولت رضيعها للشيخ فحمله بين يديه بسم اللّه، رفع الآذان في أذنه اليمنى، وحنكه بتمرة، فنظر "هارون" إلى زوجته التي كانت تقف أمام النافذة شارده ترعى الزهور البيضاء وتغني أغنية العودة دون أن تشعر بوجودهما، ثم التفت إلى أخيه يناديه "يحيى" فكان يحيى بإذن اللّه، حمل "هارون" أخاه مبتسمًا ثم تحدث إليه قائلاً:

- رجوتك أن تهبني ولدًا فوصلتني مددًا، وسندًا.

توقفت الفتاة عن الغناء حينما انتبهت لعودته، فالتفتت إليه، وحدقت في وجهه متسمرة ثم هرولت نحوه تعانقه، فقبلها من رأسها، ناولها

"يحيى" مبتهجًا، فضمته إلى صدرها قائلة :

-دعوت الله أن يردك إليّ فرزقني يسرين .

-من باع نفسه إلى الله اشتراه، وأعطاه.

ابتسمت الفتاة ثم ردت "يحيى" إلى أمه لترضعه رضعته الأولى التي سيذوق بها طعم الدنيا الأول، فرفعته إلى صدرها بحنان بالغ، ثم قبلته قبلة طويلة من رأسه، وبينما همّ الطفل ليلتقط دفقات الحياة، التفتت "فاطمة" إلى النافذة حيث وضعت زهورها البيضاء فرأت أبيها يقف أمام الباب، باب في السماء، فمدّت يدها اليمنى، ولوحت له مبتسمة أن يفتح لها الباب، ففتحه على مهل لتصلها الرياح الطيبة رويدًا، رويدًا، فتهادت الروح تصعد، وتصعد، ترتفع إلى حيث الإحتفال الكبير الذي ينتظرها، فوقفت على الباب تنظر لمن فارقتهم تنظر إلى ابنيها وزوجها، فربت "عمران" على كتفها قائلاً :

- لا تحزني لفراق المحبين، فهم عائدون حتمًا، وقري عينًا بقلوب تتلقفك.

انغلقت النافذة بعدما هبت رياح عليلة اهتزت على وقعها الأزهار البيضاء، بينما ظل باب السماء مشرعًا لا ينغلق، عادت ابنة "عمران"

حيثما عادت، فكان عيدًا لها في السماء، وعيدًا في الأرض، فوقف "العارف" شاهدًا على لحظات الصعود، فمدّ كفيه إلى وجهه يجفف عبرات الفراق، بينما ظل يشتاق عودة، فارتعش قلبه محدثًا روحه، بأن هلمي، وارفقي بجسد لم يعد يليق بك، بعدما تيبست العروق، وجف النبع، ونضب الماء، ووهن العظم، وذبل الجلد، وتقطعت الأنواط، وارتخت الجفون، وأفلت العيون، وخفت من أمامه ضوء الدنيا المظلم، بينما كان يقترب من النور، اقترب من جسد زوجته، ومدّ يده إلى وجهها يجفف عبرات ركدت على وجنيها، ثم وضع قبلة طويلة على رأسها، وحمل عنها "يحيى" الذي ارتوى، وشبع من جرعة واحدة، فحمله عنه "هارون" ابنه، بينما ظل يودع وجه أمه بدموع صابرة.

في حجرة الدرس جلس "هارون" في مقعد جده بينما كان "يحيى" يتربع في حِجره يلوك كسرة خبز، ويداعب عروسًا واجمة صنعها أخوه يومًا ما وغمسها في كل ألوان السماء السبع، فنظر الفتى إلى طلابه قائلاً :

-الكون مكان ساحر بمعنى الكلمة بما يحويه من كيانات وأجسام مهولة تفعل كل شيء تقريبًا؛ تسير، تستقيم، تنحرف، تدور، تنفجر، تتفتت، ثم تفنى، فهذا المكان مترامي الأطراف، هو غامض النشأة والنهاية

لدى عالم جاهل بالعرفان، تخيل يومًا أنه يمكن أن يكتب سيناريو متطرف يكسر به قواعد الفيزياء ثم يخرج على الناس بفكرة يصفها بـ"المجنونة" وغفل أنها موجودة بالفعل، فيصفق له هذا وذاك، لكن العارفين وحدهم من يلتزموا الصمت.

مسح "هارون" على رأس أخيه، ثم ناوله كسرة الخبز التي سقطت من يده، وعاد يتحدث:

-ماذا عن عوالم أوجدها الله بأكثر من شمس كما تحدثت روايات الخيال القديمة؟ عن ثقوب شريرة غير مرئية تمتص كل شيء ولها يضطرب نسيج الكون نفسه؟ عن حساء من مادة النجوم؟ عن كواكب تمطر ألماسًا؟ ماذا عن نجوم هجينة، يحوي الواحد منها نجمًا آخر يدور بداخله؟! فكرة غير معقولة إلا في عالم العرفان، حينما يدور عارف في قرطبة داخل قلب عارف في القاهرة مثلاً، أو حينما يدور عارف في أصفهان داخل قطرة ماء تدلت من ورقة شجر في قونية، فعالم العرفان هو عالم من خيال معقول، لكنه يوصلنا في النهاية إلى الحقيقة الكبرى.

قطع "هارون" درسه للحظات حينما رفع أخاه الذي غطّ في نوم عميق على كتفه، بينما استقرت كسرة الخبز، والدمية الواجمة في حِجره، ثم

عاد يتحدث:

- ماذا لو افترضنا أن يقوم نجم ما بابتلاع نجم ما آخر؟! حسنًا، فلنفترض ذلك، فلكي يحدث هذا لابد أن يكون النجم الأول يحتضر حتى يكون كبيرًا بما يكفي لابتلاع نجم أصغر خامد بالفعل، لكن ما هو النجم الذي يملك أكبر قطر بين النجوم في الكون وأي النجوم يعد ميتًا بالفعل؟ النجم الأحمر العملاق وحده من يستطيع أن يفعل ذلك، فيظل يبتلع بشراهة كل ما يطاله من نجوم محتضرة ظنًا منه أنه يستمد منها وقودًا للبقاء، لكنه في النهاية يموت قي صمت، ويفنى، وينتهي حينما يملأ جوفه بالموت، وتفنى معه كل الأفكار المجنونة التي اكتشفها العلماء الغافلون عن وجود النور الأعظم، فقريحتهم المسكينة تقودهم إلى أن النور ما هو إلا اندماج، وتفاعلات بين غازات خاملة، لكنهم جهلوا أنها النواميس التي صبغها صاحب النور الأعظم لندرك أن كل شيء في هذا الكون يزحف ليلتقي بنهايات النور التي تقذفها المرايا، فترتد نورًا في مكان آخر، بينما النور الأعظم ثابت لا يتغير.

أنهى "هارون" درسه فرفع الطلاب أقلامهم، وكوموا الألواح في منتصف الغرفة، ورحلوا الواحد تلو الآخر، فحمل الفتى أخاه واتجه صوب الباب، بينما لم ينتبه إلى كسرة الخبز والعروس الواجمة التي

سقطت من حِجره، لكن "يحيى" الذي شرع عينيه لم يغفل عن ذلك فظل ينظر إليهما طويلاً حتى انغلق الباب، لكن حينما أعاده أخوه إلى غرفته تفاجأ بوجدهما في فراشة، فأمسكهما بيديه وأخذ ينظر إليهما مبتسمًا، لكنه لم يندهش، ثم وضعهما جوار أخيه الذي عاد يغط في نوم عميق.

في الشارع الأعظم خرج "العارف" بعرائسه للأطفال من جديد، لكنه لم يجد حكاية جديدة يقصها عليهم، فكل الحكايات التي يحتفظ بها في جعبته صارت قديمة ومكررة، لكنه أخبرهم بأن هناك من سيأتي إليهم يومًا ما بحكاية جديدة لم يقصها عليهم أي عابر من قبل، فاقتنع الأطفال بما قاله لهم، فشغف الإنتظار أكثر متعة من أي حكاية يمكن ألا تنتهي أبدًا، فوقف "العارف" يحرك عرائسه أمامهم دون أن ينطق بكلمة واحدة، فابتسم الأطفال، ضحكوا كثيرًا، لكن أحدًا منهم لم يخرج إليه برسالة، هو أيضًا لم يكن ينتظر رسالة جديدة، فوزع عليهم عرائسه، وعاد..عاد إلى تكية "أسماء" فرآها ماتزال تجلس في مقعدها المخملي تتحسس صفحات كتابها الجديد، فتوقف أمامها قائلاً بلهجة مداعبة:

-أتمنى أن تطيب لك الحكاية الجديدة.

فحرصت على أن تخفي عنوان الكتاب بيديها، ثم رفعت رأسها إليه وقالت مبتسمة :

-ما يهمني أن أؤدي مهمتي على أكمل وجه.

سادت لحظات صمت بينهما عادت خلالها "أسماء" تتحسس صفحات كتابها دون أن تعره أي إهتمام، فاتجه "العارف" إلى أبواب الغرف السبعة فأبصر بابًا لم ينفتح بعد، فأطال النظر إليه، ثم بدأ يرتقي درجات السلم الخشبي السبع ليصل إلى غرفته الوحيدة في الدور العلوي، لكنه قبل أن يطأ الدرجة الأخيرة قالت "أسماء" بصوت مسموع:

-تذكر..لم يسكن تلك الغرفة إلا العظماء.

ابتسم الشيخ ثم هزّ رأسه يمينًا ويسارًا من مبالغتها في ترويج بضاعتها الراكدة، ومضى نحو غرفته يدفع عنها الباب ببطء شديد بعد أن خارت قواه، ووهنت عافيته، اتجه صوب النافذة وفتحها عن آخرها، خلع عباءة "عمران" البيضاء يفترش الأرض تحت المصباح المتدلي في وسط الغرفة ثم استلقى بجسده عليها وراح في نوم عميق.

خرجت "أسماء" إلى مسجد الإمام لتطعم المريدين، وتقدم لهم

نفحاتها من الخبز، واللحم، والبقول، على أن تعود بعد انتهاء ليلة المولد الكبرى في اليوم السابع ككل عام، بينما علا صوت الذاكرين، المسبحين، الحامدين، الساجدين تحمله دفقات البخور، لتتوغل في كل الشقوق، والأزقة، والشوارع الخالية إلا من الدراويش الذين تجمعوا خلف الضباب بينما توقفوا يرفعون أكفهم للسماء ليستقبلوا رسائل الله التي يطوفون بها عند الشروق ليبلغوا الناس باقتراب النهاية، بينما انطلق النور من المقام يسبق شعاع الشمس ليبدد الظلام ، وينثر الطيب في جميع أرجاء الأرض، فالإمام لا يبخل بنوره أبدًا على من قصد السبيل والنور كله لله ومنه، فيجود على من أتاه يحمل يقينًا، وأملاً، وحبًا، وعشقًا صادقًا، فما سكن جوف مريد سوى قلب واحد فقط به يطوف المدن، والقرى، والنجوع يجمع من كل رجاء مبتغى، ومن كل مقام عودة، ومن كل سبيل علامة، فيرجع كأنما لم يرحل قط، فيظل يحكي حكايته للعابرين حتى تأتي لحظة يتوقف فيها كل شيء.

عادت "أسماء" إلى منزلها بعد انتهاء الليلة السابعة تحمل ما تبقى معها من خبز، ولبن، وزبيب، ثم لم تلبث أن صعدت، صعدت إلى الفتى الذي يستلقي في فراشه لتطعمه وتسقيه، لكنها قبل أن تمد يدها لتدير مقبض الباب طرقته عدة مرات لكنه لم يجب، فعادت تطرقه مرة

أخرى وتخبره بما أتاه من رزق، لكنه لم يجب أيضًا، فأدارت المقبض ودفعت الباب، فتعثرت بالنافذة المشرعة عن آخرها، فاستاءت لفعلته وتقدمت نحوها سريعًا تقاوم الرياح الشديدة، ثم أوصدتها بقوة خوفًا من أن يصيبه مرض، وهنا التفتت نحو فراشه فلم تجد له أثرًا، بحثت عن ملابسه، عن حقيبته، عن أي شيء، لكن كأن شيئًا لم يكن، وبدت الغرفة خاوية تمامًا إلا من أثاثها البسيط الذي تراكمت عليه أكوام التراب، وسكنته العناكب المنزلية تشد خيوطها مطمئنة، فتراجعت"أسماء" إلى الخلف مغادرة المكان بعد أن تذكرت الغرف السبع في الأسفل، فهبطت السلم الخشبي سريعًا لتكمل بحثها عنه، لكنها تفاجأت بغرفة وحيدة ذات باب مغلق لم ينفتح بعد، أما الغرف الست الباقية فكانت قد اختفت تمامًا وحل محلها الجدار، فهرعت الفتاة إلى مقعدها المخملي لتطالع الفصل الأخير في الكتاب لكنها أبصرت كتابًا جديدًا لم تقرأ فيه كلمة واحدة قط، فلم تجد بدًا سوى أن تجلس في مقعدها وتقرأ بدايات الحكاية الجديدة.

جلست "أسماء" في مقعدها المخملي تغني أغنية العودة حينًا، وتقرأ صفحات كتابها الجديد حينًا آخر، بعدما انقطع عن زيارتها النزلاء، لكنها لم تنقطع أبدًا عن إطعام المريدين في مسجد الإمام، ولم

تنقطع أبدًا عن الصعود إلى غرفة العارفين لترتيها للنزيل المنتظر، ولا تنقطع أبدًا عن فتح النافذة ووضع الماء والقمح للطائر الذي نحت عشًا له في جدار الدار، لكنها رغم الغياب الذي خيم على منزلها لم تفقد النور الذي ظل يحاوطها في كل مكان، كما أنها لم تضل رائحة عطر المحبين الذي كان يلازم أنفاسها في كل حين فتهتدي به إليهم لتطعمهم، وتسقيهم من رزق يتنزل عليها من عند الله.

وقفت "أسماء" أمام النافذة تُقلب وجهها في السماء، وتنتظر أوبة صاحب الحكاية الذي سيهل عليها في وقت قُدر فيه اللقاء، حينما تتقاطع كل الخطوط المتفرقة أمام باب الدار لتبدأ فصول الحكاية الجديدة، لكن "أسماء" أبدًا لم يكن لها حكاية تسردها، أو تذكرها، فهي لم تعرف نفسها إلا على هذا الحال، فتاة تجلس على مقعدها المخملي في منزل عتيق، يسكنه نزيل واحد، يرافقه كتاب دونت فيه حكاية لا تنتهي، فتظل تقرأ، وتقرأ، فمرة تقرأ بقلبها، ومرة تحسس الكلمات بيديها، ومرة تبصرها بعينيها، ومرة أخرى تقرأ بكل ما آتاها، فهناك أناس أتى بهم الله إلى تلك الدنيا فقط ليقرأوا على الناس حكايا غيرهم، ولو أن لهم حكاية ما قصوا، ولا قرأوا، لأن حكايتهم ستظل تراودهم عن حكايا العارفين، فذلك هو فناء النفس الذي يُبتغى

منه خلود الروح، ذلك هو الاحتراق النبيل، ولولا هؤلاء ما وصل إلينا ما أبت الحجارة العتيقة أن تبوح به وظلت تخفيه بين شقوقها، وما وصل إلينا ما سكن تحت ركام الزمن، وما وصلت إلينا أمنية تمناها رجل مع أصحابه تحت الشجرة في الجزيرة الخضراء، وما وصلت إلينا تلك الحكاية التي لا تنتهي..

عادت "أسماء" إلى مقعدها المخملي في صدر الدار تمسك بالكتاب، وتنظر إلى أبواب الغرف السبع التي عادت للظهور، وبينما هي تطرح سؤالاً على نفسها عن باب سابع لم يفتح لعارف من قبل، سمعت طرقات خجلة على باب الدار، فقامت من مقامها لتفتحه للسائل، فوقعت عينها على شاب في مقتبل العمر جاء يبتسم لها قائلاً :

-اسمي "يحيى" جئت طالبًا المأوى.

فبادلته "أسماء" إبتسامتها بعين مبصرة قائلة وهي تشير بيدها لأعلى:

-لدي غرفة لم يسكنها سوى العظماء.

دلف الفتى إلى المنزل ينظر هنا، وهناك ويتفحص الجدران العتيقة بعينيه، حتى وقعت عينه على الكتاب الذي ألقته على مقعدها المخملي دون اهتمام، قائلاً :

-لكل إنسان حكاية يرويها من يأتي بعده.

- لكن قاريء الحكاية لا يتغير مهما تعددت الحكايات .

- ربما يرحل قبل أن يصل إلى النهاية.

- من يعش لينتظر لا يرحل أبدًا يا فتى.

-سيأتي يومٌ تنتظرين فيه النهاية.

ردد "يحيى" تلك الكلمات وهو يحملق في ملامحها السمراء حينًا، وفي الوشم المنحوت على يدها اليمنى حينًا آخر، ثم بدأ في ارتقاء السلم الخشبي ليصعد إلى غرفته في الدور العلوي، بينما صمت كل شيء من حوله إلا من صوت أقدامه التي أحدثت وقعًا جديدًا في عوالم العرفان، فعلا صوت الذاكرين، الحامدين، المسبحين، الساجدين من مسجد الإمام يملأ الدنيا بنفحات من نور، وعطر لا ينتهي..اللّه..اللّه..اللّه.. وهنا صاح كبيرهم "هووو!" فعاد الهدوء إلى المكان مرة أخرى إلا من صوت خفيض كان مازال يسبح في الآفاق..

اللّه..اللّه..اللّه..

اللّه..اللّه..اللّه

تمت

شكر وتقدير

- أتقدم بأسمى آيات الشكر والعرفان لكل من ساهم في إخراج هذا العمل، سواء بالقول، أو بالفعل، ولا أنسى منهم ؛ الأساتذة دعاء عثمان، السيد مراد، معاذ عمران، رباب الكيلاني، حسام عبد الغني، محمد سليم.

- كما أتقدم بخالص الشكر إلى صانع القهوة الماهر الشيف فتحي عبده، و(عم متولي) رفيق المقهى وصانع الشيشة الصامت الذي لم أعرف عنه سوى اسمه..

- ويسعدني أن أشكر (د. عيد إبراهيم) والمبدعة (مروة فتحي) مصممة الغلاف.

- وخالص الشكر للسيدة زوجتي، وأبنائي حنين، وياسين على تحملهم لي طوال فترة الكتابة..

أشكركم جميعًا،،،

سيرة ذاتية

اسمي (محمد سامي عثمان عثمان أحمد كامل محمد خليل حسن مصطفي حسين جاد الله حسين محمد خضر يوسف أحمد عبد الرحمن البوهي (الصغير) جعفر عامر خالد محمد أحمد يوسف محمد عبد الرحمن البوهي (الكبير) محمد أحمد سليم عمرو أحمد محمد عبد الله قاسم محمد حسين بن حسن الأفطس بن علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب زوج بنت رسول الله محمد (صلوات الله عليه).

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com